



ألف ليلة وليلة

حسين جوهر محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

٧





ألف ليلة وليلة

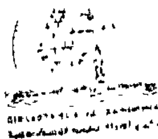
الجزء السابع

عبد الله البرى و عبد الله البحرى

كتبه

حسن جوهر   محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية





دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء السابع

صفحة



غانم بن أيوب

(١)

غانمُ بنُ أيوبَ فتًى وسيمٌ ، جميل الطلعة ، حسَنُ الهيئة ؛ له أختٌ بارعةُ الجمال ، رشيقة ، ممشوقةٌ ، لها طلعة البدرِ ، خفيفةُ الروح ، حُلوة النكتة ، لطيفةُ الحديث ، حسَنةُ المعشر ؛ بها فتْنَة . وغانمٌ وأخته فتنةٌ كان أبوهما من كبارِ التجار ، ومشهوريهم ؛ كان يرسلُ تجارتَه إلى الهند والسند والصِّين والعراق ومصر ، فيُقْبِلُ الُحرفاء عليها ، ويدفعونَ ثمَنَها ، ويعودُ عليه منها ربحٌ كبيرٌ .

ولما تُوفى هذا الرجلُ ترك لابنه وابنته مالًا كثيراً ، وتجارةً رابحة .

وعند وفاتِه كان قد ترك من جُملة ما ترك أَحمالًا من الخزِّ والدِّيباج ،

ونَوافِجِ المسكِ مُحَزَّمَةً ومُعَدَّةً للتَّصدير، ومختومٌ عليها بِرَسْم بغدادَ.

فلما انقضت أيامُ العزاء والحداد، عَزَم الفتى غانم بنُ أيوبَ على السفرِ بهذه الأحمال التى كان فى نيةِ أبيه السفرُ بها قبل أن تدركَه منيتُه للاتجارِ فيها.

فوَدَّع أُمَّهُ وأختَه، وخرجَ بتِجارتِهِ متوكِّلًا على الله، بِصُحبةِ جماعةٍ من التُّجَّار.

وكُتِبَت لهمُ السلامة، فوصلوا إلى بغداد سالمين، ولم يَحدُث لهم، ولا لِتِجارتِهم سوء.

فاستأجرَ غانمٌ له داراً حسنةً، لها فِناء واسعٌ رحيب، اتخذَه مخزناً لتجارتِهِ، وأنزَلَ فيه الأحمال، وفرَش بعض الغُرف التى فى صَدر الدارِ بالبُسُط، وصَفَّ بجانب حِيطانِها الأرائكَ؛ واتخذَ من الغُرَف الدَّاخلةِ أماكنَ لنَومِهِ هُو وأَتباعِهِ.

ولما استراحَ من عَناء السفر، ونفَضَ عنه وعْثاءَهُ، وانفَضَّ من استِقبال وُفود التجار المهنئين له بِسلامةِ الوُصول، عَمَدَ إلى تِجارتِهِ، وَحَلَّ أحزِمَتَها، واستخرَج من كل صِنف شيئاً؛ وحمله هو وأتباعه، وخرَجوا جميعاً إلى سوق التُّجار. ولما وصَل إلى السوق تَلقَّاه التجارُ بالترحيبِ والإكرام، وأنزَلوهُ فى دُكَّان شيخ السوق، فأخذَ هذا منه بِضاعَته، وعرَضَها للبَيع، فتهافتَ عليها الشارون، وتَنافسوا فى شِرائِها فبِيعت بضِعف ما كان يُقدَّرُ لها من ثمن. ففَرِح غانمٌ بهذا الربح الوفير.

وصار يأتى كلَّ يوم إلى شيخ السوق ببضاعتِه ، فتُباعُ فى الحال .

وذات يومٍ . حضرَ غانمٌ إلى السوق على عادتِه ، فوَجدَ بابَها مُغلقاً ، فاستعجب لذلك واستفهمَ عن السبب ؛ فقيل له : إن أحدَ التجّار الكبار قد توفاهُ الله ، وذهب جميعُ تجار السُّوقِ لتشييع جنازتِه ، فسأل عن مكان الجِنازة ، فأرشَدوه إليه ، فتوجَّه من فورِه للاشتِراك فيها .

وسارتِ الجِنازةُ إلى المَقابر خارج المدينةِ ، وكان أهلُ الميتِ قد أقاموا سُرادِقاً كبيراً فى المَقبرة ، لاستِراحةِ المُشيِّعين ، وتقبُّلِ عزائِهم . فجلَسوا جميعاً فيه بعد أن وُورِىَ الميتُ فى التراب ، يستمعون إلى تلاوة القرآن على ضوءِ الشُّموع والقَناديل ، وأُحضِر العَشاء ؛ فتعشَّوا جميعاً ؛ ثم عادوا ثانياً إلى الجلوس فى السُّرادق ، فقَلِقَ غانمٌ ، وانْشَغلَ ذِهنُه على أمتِعَتِه وتجارتَه التى ترَكها فى منزلِه من غير حراسةٍ ، وقد شاع بين الناسِ أنها صنوفٌ طيبةٌ ، وسِلعٌ مُمتازةٌ ؛ فهْى مطْمع للطامِعين .

وقال لنفسِه : إن قضيتُ الليلَ بعيداً عن مَنزِلى ، فإنِّى لا آمَنُ أن يسطُوَ اللصوصُ على ما به من مالٍ وأحمال .

فأراد الانصِراف ، ولكنَّه استَحى أن ينصرفَ وحيداً دون باقى القوم ، فتَعلَّل بقضاء حاجةٍ ، ثم تسلَّلَ عائداً إلى المدينةِ ، وسار ضارِباً فى الظَّلامِ يَضِلُّ تارةً ، ويَستَرشِدُ أُخرى ، حتى وصَل إليها ، وكان الليل قد انتصفَ ، وأُغلِقتْ الأبوابُ فتَحيَّرَ فى أمرِه ؛ ووقفَ خارجَ سور المدينةِ يُفكِّرُ :

ماذا يفعل ؟ ! وإلى أين يذهب ؟ ! وفى أىّ مكانٍ يبيت ؟ !

وتلفّتَ حوله لعلّه يجدُ مكاناً يلجأُ إليه ، أو يُشاهِدُ شخصاً سائراً يأتنِسُ به ، أو يرى نفراً عائداً يسترشِد برأيه ؛ ولكنه لم يُبصِرْ شيئاً ، ولم يقعْ نظرُه على أحدٍ ، ولم يصلْ إلى أُذنَيْه غيرُ نُباح الكلابِ آتياً إليه من ناحيةِ المدينة ، وعُواء الذِّئاب تُردِّدُه جوانبُ الصحراء من الناحيةِ الأخرى ، فدَبَّ فى قلبه الرُّعب ، واستوْلى عليه خوفٌ شديدٌ ، وذُعِرَ ذُعراً لم يدخل قلبَه مثلُه ؛ وتمْتَم باسمِ الله ليستمد الاطمئنانَ ، واستعاذَ به ليُعيد إلى قلبه القوة والإيمان ؛ وقال لنفْسه : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله . كنت خائفاً على مالى ومَتاعى ، والآن أخشى عَلَى نَفْسِى ، وأتوقعُ ضَياع روحى ! !

ولم يجِدْ غانمٌ مندوحة من أن يكرّ راجعاً إلى ناحية المقابر ، فقد يجدُ مأوًى يأوِى إليه ، أو يصلُ ثانياً إلى المقْبرةَ التى كان بهاحيث رَجَّح أنّ القومَ لا يزالون جالسين .

وفيما هو سائرٌ يتخبطُ فى الطريق . ويضربُ فى وحْشةِ الليل ، وصعوبةِ الصَّحراء مُتلَفِّفاً فى بجادٍ من ظَلامٍ كثيف ، بعضُه فوقَ بعض ، إذا أخرجَ يده لم يكَدْ يراها . لا يُرْشِده إلى مَعالم الطريق ، ولا يُجنِّبُه الارتطام بالصخورِ والأحجارِ إلا البصيصُ الضئيلُ المنبعثُ من نجوم السماء . فبينما هو كذلك مرَّ بسورٍ مربع ، به بابٌ من الحجر الجرانيت مفتوحٌ فتحةً صغيرةً فأطل برأسِه منها ، فرأى فى الدَّاخِل قبراً تقوم

بجانبه نخلةٌ مرتفعةٌ بعض الارتفاع ؛ فدفع الباب بقُوَّةٍ ، واستطاع أن يُحرِّكه قليلًا ، فانفرجَ عن فتحةٍ يستطيعُ أن ينفُذ منها إلى الداخلِ .

فحدَّث غانمٌ نفسَه : هنا يحسنُ بي أن أنام .

ثم دخلَ وأغلقَ البابَ خلفه ، وتكوَّرَ ورقدَ بجانبِ القبر ، وأغمضَ عينَيْه يَنْشُد النَّوم .

ولكنْ من أيِّ جهةٍ يطرُق النومُ جَفنَيه ، ووحشةُ المكان تكتَنِفُه ، ورهبةُ القبرِ يَقْشَعِرُّ لها بَدَنُه ؛ حاوَلَ أن يهدئَ نفسَه ، ويُسَكِّنَ من رَوْعِه دون جَدْوى ؛ فإن شعورَ الوحشةِ والرَّهبةِ كان أقوى من أن تُقاومَه أيّة مُحاولةٍ للتهدئةِ والتَّسكين ، يُحاولُها ويُزيِّنُها العقلُ للنَّفسِ . فهبَّ غانمٌ قائمًا ، وهَرْوَل خارجًا من البابِ إلى فضاءِ الصحراء ؛ وما كادَ يُمعِن فيها بعيدًا حتى رأى نورًا يلوحُ أمامَه عن بُعدٍ من ناحيةِ بابِ المدينةِ . فدقَّق فيه النظر بُرْهةً وهو يظُن أن عَيْنَيه تَخْدَعانه ، ولكنه تَيَقَّنَ أن هذا نورٌ ؛ فقد شاهد الضَّوء يهتزُّ يمينًا وشمالًا ، ويقتربُ إلى ناحيته رُوَيدًا رُويدًا . فشَعَر ببَعض الإيناس ، الذى ما لَبث أن تَحَوَّل إلى شَكٍّ وريبة ، فاسْتدار إلى البابِ الذى خرج منهُ منذ بُرهةٍ ، ودَلِفَ منه ، وأغلَقهُ من خَلفه ، وتَعلَّق بالنخلةِ فارْتقاها ، واختَفَى بين سَعَفِها ، يرقبُ اقترابَ الضَّوء ، وما يَظهرُ وَراءَهُ ، وينظرُ إلى حاملِ مِشعَلِه ، وهلْ هو صديق يَركَنُ إليه ، أو عَدُوٌّ يَخشَى بَأسَه .

واقتربَ الضوءُ إلى سور القبرِ شيئاً فشيئاً حتى قَرُب منه ، فتبين غانمٌ على نورِه من فوق النخلةِ ثلاثة عبيد ، اثنان منهم يحملان صندوقاً كبيراً ، والثالث يحمل مصباحاً وفأساً . فلما اقتَربوا من باب السور ، سَمِعَ غانم أحد حامِلِى الصندوق يقول مُنادياً زميلَه مُندَهِشاً :

يا صَواب !

فرد الثانى : ما بك يا كافور ؟ !

قال : أَما كُنَّا هُنا وقت العَشاء ، وتركنا البابَ مفتوحًا ؟

قال الآخر : نعم ؛ لقد تركناهُ مفتوحاً فتحةً صغيرةً تساعِدُنا على الدُّخول منها ، والاختفاء وراءَ السورِ ، وها هوذا الآن مغلق ، فيا عَجَبا كلَّ العجب ! ما كنت أظنُّ أنَّ هذا المكان يطرُقُهُ طارق ؟ !

فقال الثالث ، حاملُ المصباح والفأس : ما أقلَّ عقلَكما ! أما تَعرِفان أنَّ بعضَ الرُّعاة يخرجون من بغداد ، ويَرعَوْن أغنامَهم فى مكانٍ قريب من هـذه الصحراء ، فإذا أمسَى المساءُ عليهم ، وسَرَقَهمُ الوقتُ ، ولم يَستطيعوا العودةَ إلى دُورِهم — يَدْخلون هنا ، ويُغلقون البابَ خوفاً من السودِ أمثالِنا أن يأخُذُوهم ، ويَشْوُوا لحومَهم ، ويأكُلُوها ؟ !

فقالا له: لا أحدَ أقلُّ منك عقلًا يا أخانا !

فقال : إنكما لا تُصَدِّقانى إلا حينما ندخلُ المقبرةَ ، ونجد فيها أَحدًا — وما أَظُنُّ إلا أَنَّ الذى فيها قد رأَى الضوءَ ورآنا ، فهرب فوق النخلةِ خوفاً منَّا ! !

فلما سمع غانم قول العبد الثالث ، تمتم فى نفسه ساخطًا مُتحسِّرًا : يا أأمن العبيد ؛ لا ستركَ اللهُ ، ولا أبقاك ، ولا حفِظ عليكَ عقلكَ ومَعرِفتَك ! ! ما الذى سيُخَلِّصُنى الآن من هؤلاء السُّود المناجيس المناكيد ؟ !

ثم سمع العَبدين اللذين يَحمِلان الصندوق يقولان ، وهما يَضحَكان : ليس عليك يا بخيت إلا أن تتَسلَّق الحائط ، وتتدلى من الناحية الأُخرى ، وتفتح لنا الباب فقد تعِبنا من حمل الصندوق لأنه ثقيلٌ ، ولك علينا أن نُمسكَ لك واحدًا من الذين سنَجدُهم فى الداخل ، ونَشْويه شيًّا جيِّدا ، بحيثُ لا يضيعُ من دُهنِه وشحمِهِ شىء بين الجَمْر ، ثم نُقدِّمُه لك لتلتَهِمَه.

فظهر التَّردُّدُ على بَخيت وقال :

خيرٌ لنا أننا نقذفُ بالصُّندوق من فوق الحائطِ ، فقد تذكرتُ أنه رُبَّما يكون وراءَ السور لصوصٌ من قطاعِ الطريق الذين يَقتُلون الناس ، ويسرِقون أشياءَهم ثم يأتون إلى مثل هذه الأماكنِ يقتسمونها فيما بينهم .

فقالا له : يا قليل العقل ؛ أما تكُفُّ عن بَلاهَتِك وثَرْثَرَتِك ، وتَشدُّقِك بالكلام الذى لا يفيدُ حتى إذا ما دعا داعى العمل أحْجَمتَ وركِبَك الخوف ؟ !

ثم إنهما وضَعا الصندوق على الأرض ، وتسوَّرا الحائط ، وفتحا الباب ، وأدْخَلا الصندوق ووضعاهُ بجانب القبر ، وبخيت يُنيرُ لهُما بالمصباح .

فقال أحدُهما :

يا أُخوَىَّ إنى قد تعبتُ من حمل الصُّندوق ، فلنَسْترِحْ قليلًا ، فإذا أخذنا قِسطاً من الراحةِ نقومُ بدَفنِ الصندوق فى القبر .

فقال الثانى : نعمَ الرأىُ ، ولْيَقُص فى هذه الفترةِ كلٌّ واحدٍ منا السببَ فى كَيِّه ، وتَشْويه وجهه بتلك العَلامات المميزة له .

فقال بخيت : سأقص أنا أوَّلًا عليكم قِصَّتى .

قالا : قُصَّ فنحنُ آذانٌ مُصغِيةٌ .

فقال :

اعْلما يا أُخوَىَّ أنى حينما كنتُ صغيرًا ، لم تتجاوزْ سِنِى ثمانى سنين ، كنتُ أكذب على الجَلَّابة كلَّ سنة كَذبة تكونُ سبباً فى أن يقعَ بعضُهم فى بعض ، وتدور بينَهم مشاجراتٌ عنيفةٌ ، فلما عُرِف ذلك عنِّى رأى سيِّدِى الجَلَّاب أن يتخلص منى ، حتى يَكفيَه الله شرِّى ، ويحفَظَه هو وأصحابَه من كَذِبى ، فأخذَنى وذهبَ بى إلى الدَّلَّالِ ، وقال له : خذ هذا العبدَ ، وبِعْه على عَيْبِه .

فقال له : وما عَيْبُه ؟!

قال : يكذبُ كلَّ سنة كَذبةً واحدة .

فصار الدلَّال ينادى : من يشترى هذا العبد على عَيبه ؟!

فنظرَ إليه الناس فى دَهشة وعَجَب ، ونفَروا منه ومنِّى نُفورًا شديدًا لأنهم لا حاجةَ بهم إلى شِراء عبدٍ مَعيب ، لأن العبيد غيرَ المعيبين كثير ؛



ولكن رجلًا تاجراً تقدم إلى الجلّاب ، واستعدَّ لشرائى على عيبى ودفع فىَّ ستمائة درهم ، وأخذنى إلى منزلهِ ، بعد أن عرف من الدّلال أننى أكذبُ فى كلِّ سنة كذبة ، وظللتُ فى خدمةِ التاجر الزمنَ الباقى من تلك السنة ، وكانت كذبتها قد وقعت منى وأنا فى خدمةِ الجلّاب .

ثم هلّت السنة الجديدةُ ، وكانت سنةً مباركةً مخصبةً بالنباتِ ، فكسب الزُّراع ، وزادَ ربحُ التُّجار . فإنهم بعد أن جردوا تجارتَهم ، عرفوا مقدارَ ربحِهم ، وصاروا يُهنِّئُ بعضُهم بعضا ، ويقيمون لذلكَ المآدبَ والحفلات إلى أن جاءت النوبةُ على سيِّدى فى دعوتِهم ، وإقامةِ وليمةٍ لهم .

فدعاهُم إلى بستانٍ بخارج المدينةِ كان يملكه ، وحملْنا إلى هُناك جميع ما تحتاجُ إليه الوليمةُ من أطايبِ الأطعمةِ ، ولذيذ الفواكه ، وغيرِها .

فلما جاءَ الميعادُ وفد تجارُ المدينةِ ، ثم جلسوا جميعاً يأكلون ، ويشربون ، ويتسامرون ، ويتنادرون ، وقتاً طويلًا . ثم أراد سيِّدى أن أُحضِر له شيئاً من البيت كان قد نسيَه ، فنادانى وكلَّفنى بإحضارِه على عجل ، فامتثلتُ أمرَه ، وركبتُ بغلةً ، وتوجهتُ إلى الدّار ، فلما قربتُ منها صرختُ ، وَوَلْوَلتُ ، وأسبلتُ دموعى ؛ فاجتمعَ علىَّ الناسُ كباراً وصغاراً ، وداروا حوْلى يستفْهمون عن سبب صُراخى ، ويَسْتفْسِرون عن حالى ؛ وكنتُ كلَّما ألحُّوا فى الاستفهام

والاستِفسار ، ازددتُ أنا صُراخاً وعَويلًا ، وأصيح : واسيِّداه ! ! واسيِّداه ! !

وسمعتْ زوجةُ سيِّدى وبناتُها صُراخى وبكائى على الباب ، ففَتَحْنَ فزِعاتٍ يسألنَنى الخبرَ ، فقلتُ لهن :

إنَّ سَيدِى كان جالساً تحت حائطٍ قديم هو وأصحابُه ، فوقع عليهم ، فلما رأيتُ ما جرَى لهم ركبتُ البغلةَ ، وجئتُ مسرعاً لأُخبِرَكُن .

فلما سمعتْ زوجتُه وبناتُه منى ذلك صرَخْن ، وشقَقْن ثيابَهن ، ولَطَمْن وجُوهَهُن ؛ وأتتْ إليهن نساء الجيران يُواسينَهن ، ويُشارِكْنَهن فى البُكاء .

أما سَيِّدتى فقد أخذَتْ تصرُخ ، وتقْلبُ متاع البيت بعضُه فوقَ بعض وتتلف زينتَه ، وتكسر رُفوفَه وتُحطِّم أثاثه ، وتُلطِّخ حِيطانَه بالسَّواد ، وتَهيب بى صائحة :

وَيْلَك يا بَخيت يا مَشئوم ، يا أَشأَمَ من الغِربان والبوم ؛ تعال ساعِدْنى ، وخرِّب معى البيت . فلن يعمُر بعد سَيِّدِك ؛ إذ ما قيمةُ الحياة الدنيا من بعده ؟ !

فلما سمعتُ ذلك منها ، عاوَنتُها على تخريبِ بيتها ، وإلباسِه ثوبَ الحـداد ؛ فصرت أفتَحُ الأصونةَ ، وأُخرِج الرفوف بكل ما عليها من الأوانى والصِّينى وغيرِه وأكسِّره . حتى أتيتُ على جميع ما فى البيتِ ، فلم أترك فيه شيئاً سليما ؛ فعلتُ ذلك كُلَّه ، وأنا لا أكُفُّ عن الصِّياح :

واسَيِّداه !! واسيداه !!

ثم قالتْ لى سيِّدَتى وهى تبكى : تعال يا بخيت ، فسِر أمامَنا ، وأَرِنا المكان الذى فيه سيدُك تحت الأنقاضِ حتى نخرجَه ، ونأتىَ به إلى هُنا ، ونُشيِّعَ جَنازتَه بما يَليق بمقامِه ، وبمَركزِه الاجتماعى والمالى بين سُكان المدينة ؛ حتى لا يَظُنَّ الناس أننا قصَّرْنا فى الواجب علينا نحوَه .

نخرجْن مُتَّشِحاتٍ بالسواد ومعهن أقاربُهن ، وبعض جاراتِهن .

فسرتُ أمامَهُن وأنا أصيحُ : واسيِّداه ! ! واسيِّداه !! .

وكُنَّ يسرْن خلفى مكشوفات الوجوه حاسرات الرءوس ، حافيات الأقدام ، جَزِعات القلوبِ ، باكيات ، نائحاتٍ ، صائحاتٍ : آه !! آه ! ! أوَّاه ! ! أوَّاه !! يا عمودَ البيتِ ، يا حصنَ الأهل ، يا عَطوفاً على القريب ، يا حَنوناً على الغريبِ ، يا كافِلَ اليتيم ، يا معطى المسكين ، يا . . .

فلم يبقَ أحدٌ من أهل البلدِ من الرجالِ والنساء والأطفال إلا وقد خرَج وراءهُن . وهم جميعاً فى عويلٍ وبُكاء وحسرةٍ وحُزن ؛ وأخذوا يتذاكَرُون ما كان عليه الرَّجُل من كريم الخُلق ، ولطيفِ المعشرةَ ، وما كان يقومُ بِه من صلاةٍ وصيامٍ ، وما كان يعمَلُه من خير ويُقَدِّمهُ من صَدَقات ، ثم يقولون :

لا حول وَلا قُوة إلا بالله .

وقال بعضهم : إنَّا سنَذهَبُ إلى الوالى ونُخبِرهُ بذلك الخبر .

وقال بعضٌ آخر : ونحن سنأتى معكم .

وسِرْنا جميعاً . وأنا لا أكُفُّ عن الصياح ، وهم خلفى يصيحون ، حتى قاربنا البستان الذى فيه سَيِّدى وأصحابه . فجريت أَسْبقهم ، ودخلتُ البستان على سَيِّدى ، وأنا أحثو الترابَ عَلَى رأسى ، وألطم وَجْهى وأَصيحُ :

واسيدتاه ! ! أواه ! ! أواه ! ! ما بَقِىَ لى مَن يعطفُ عَلَىَّ بعد سيدتى ، يا ليتنى فداءكِ يا سيدتى ! !

فلما رآنى سَيِّدى بُهتَ وذُعرَ ، واصفرَّ لونهُ ، وقالَ بصوتٍ متهدِّج :

مالك يا بخيت ؟ ! وما خبرُك ؟ !

فقلتُ : يا سيدى إنها مُصيبةٌ دهْماء ، وداهية دهْياء ، قد حلَّتْ بنا ، فإنك لما أرسلتنى إلى البيت لقضاء طلبك . ذهبتُ فوجدت حائط المنزل قد انهدم ، وانطبق المنزلُ على مَن فيه .

فصاح سيدى مُرْتاعاً : أو لم تَسْلم سيدتك يا بخيت ؟ !

فقلتُ وأنا أبكى : لا يا سيدى ، إنها أول من ماتَ تحتَ الأنقاضِ . . .

فقال وقد زادَ ارتياعاً : وهل مات أحدٌ آخر ؟ !

قلت : نعم . الأولاد جميعاً ماتوا .

قال : وابنتى الكبيرة ؟ !

قلت : ماتت .

قال : وابنى الصغير ؟ !

قلت : مات .

فقال وقد ارتجَّتْ أعصابه ، وأصابتهُ نوبةٌ شديدةٌ من قوَّةِ الصدمة :

وهل أحضرت لى بغلتى لأركب عليها ، وأعودُ بها سريعاً إلى المدينة ؟ !

فقلت آسفاً : والبغلة ما سَلمت لا هى ولا غيرها ، حتى الغنم والوز والدجاج أطبق عليها حائط المنزل فصارت أكواماً من اللحم ، وطعاماً للكلاب والقِطط .

فلما قلت ذلك لسيدى لم يستطِع أن يملك أعصابه ، ولم يقدر على ضبط نفسه ، ففار دمُه ، وغلا صدرُه ، وسيْطر عليه حزنٌ عميق ، وهمٌّ لم يقدر على احتماله ، وأظلمتْ الدنيا فى عينيه ، ودارتْ به الأرض الفضاء ، وخرج عن هُدُوئه واتزانه ، فألقى بعمامته من فوق رأسه ، وقطع أثوابه ، ونتف لحيتَه . وصار يضربُ على رأسه ، ويلطمُ وجههُ ، ويضرب رأسهُ فى الحائط ، حتى أسالَ دمه ، وأخذ يصيحُ :

آه ! ! واأوْلاداه ! ! وازوْجتاه ! ! آه ! ! وامُصيبتاه ! ! مَن جَرى له مثل ما جَرى لى ؟ ! ومن حدثَ له مثل ما حدث لى ؟ !

ورَثى التجار لحاله ؛ فأسرعوا إليه ، والتفوا حوله ، وأخذوا يخفِّفون

عنه وقعَ الخبر عليه ، ويربتون كتِفه ، ويُذكِّرونه بآياتٍ من الكتب السماوية تدعو إلى الصبر ، والتسليم لله ، والرِّضا بقضائه ، فالعوضُ منه وعليه .

واندفع سيدى خارجاً من البستان كالمخبول ، شارد الذِّهن ، مُشتَّت الفِكر ، لا يدرى إلى أين يتجه ، وأصحابهُ يسرعون من ورائه ، وإذا بغَبرةٍ وصياحٍ ، وناسٍ كثيرين يبكون ، ويعولون ، ويلبسون الحداد ، فنظر سيِّدى إليهم فإذا هم أهله وزوْجته وأولاده ، يتبعهم جمعٌ غفيرٌ من أهل المدينة .

ووقع نظرُ سيدى على زوجته وأولاده وهمُ فى حالةٍ يُرْثى لها ، فوجوههم مُغبرة كالِحة ، وعيونهم باكية ، وملابسهم ممزقة .

فأخذ ينظرُ إليهم فى دهشةٍ وعجبٍ وشكّ ، وهو فاغرٌ فاه ، محدق عينيه ، وأخذ يردِّد النظر ، ويوزِّعهُ بينهم ، وبين من حوله ، ويهزُّ رأسهُ ، ويصفِّقُ بيديه ، ويلتفتُ يميناً وشمالا .

ووقعت أنظارُ سيدتى وأولادها عَلَى سيدى وهو واقفٌ مذهول فى مقدمة أصحابه ، فبُهتوا هم أيضاً وتولاهم الذُّهول ، وصدمتهم الحيرة ، وطال بالفريقين الوقوفُ ، وكأنما قد تسمرت أقدامهم بالأرض وعيونهم تحملقُ فى وجوه بعضهم بعضاً .

ثم لم تلبث سيدتى أن اندفعتْ هى وأولادها إلى سيدى ، فتعلقوا جميعاً به يقبِّلونه ، ويتعلقون به ، ويعانقونه ، بعد أن أيقنوا أنه هو

حقًّا رجُلهم وأبوهم وعائلهم ، لا تخدعهم منه أنظارهم ، وأنه لا يزالُ حيًّا يُرْزق .

وأيقن هو أنهم حقًّا زوجته وأولاده سالمين لم ينلهم أذًى ، فبادلهم العِناق والقبلات وهم يتصايحون فى نفسٍ واحد :

الزوجة : الحمدُ لله على سلامتك ، فقد أَرانا الله وجهك بخير . . . ونجاك أنت وأصحابك .

الأولاد : شكرًا لله يا أبتاه فقد أنقذك من سُقوط الحائط .

الرجل : كيفَ حالكم أنتم ؟! وما الذى حصل لكم ؟! حمدًا وشكرًا على نجاتكم من سقوط الحائط عليكم .

وأقبل الناسُ القادمون من بغداد على سيدى ، وعلى التجار الذين معه يهنئونهم بنجاتهم ، وكذلك تقدم التجار الذين كانوا مع سِيدى يهنئون القادمين من بغداد بنجاتهم ، وكثر بينهم الكلام والاستفهام من غير أن يفهم أحد منهم شيئًا ، أو يقف على سبب .

و بينما هم فى أخذٍ وردٍّ إذ بالوالى قد أقبل على البستان هو ورجاله ، ومعهُ العمال بالفئوس ، والمساحى ، لرفع الأنقاضِ ، وإخراج القتْلى من تحت الحائط .

فلما أشرف على الجمع قال :

أين الحائط الذى سقط عَلَى جماعة التجار ، حتى يسرع العمال برفع أنقاضه وإخراج الجثثِ من تحتها ؟

فقال الناس : إن التجّار جميعاً سَالمون ، لم يُصِبهم أذًى ، وهم بخير وعافية .

فقال الوالى : ما الذى نجّاكم من تحت أنقاض الجدار ؟ !

فقال سَيِّدى : إننا كُنَّا فى البستان ، ولم يسقط علينا الجدارُ ، إنما الحائط الذى سَقط كان فى منزلى ، والله سبحانه وتعالى قد نجّى أهلى من شرِّه فنَجّاهم جميعاً .

فقالت زوجته : إنما الحائط كان فى البستان ، فقد أتانى العبد بخيت ، وقال : إن الحائط وقع على سَيِّدى وأصحابه وماتوا جميعاً .

فقال سَيِّدى فى دهشة : إنه قد أتانى الآن ، وهو يصيح : واسَيِّدَتاه ! ! وأولاد سَيِّدَتاه ! !

وقال : إن سَيِّدَتى وأولادها قد ماتوا جميعاً .

وتلفّت القومُ يبحثون عنِّى ، وقد احمرّت أعينهم ، وكادَ يتطايرُ منها الشرر من شدة الغَيظ .

وكنتُ جالساً على الأرضِ بالقرب منهم ، وعمامَتى مخروقة فوقَ رأسى ، وأَحْثو الترابَ عليها .

فصاح سَيدى صيحةً عاليةً منادياً : يا بخيت .

فأقبلتُ عليه ، فقال لى ، وهو يكاد يتميَّز من الغيظ !

وَيلكَ يا عبدَ النَّحس ! ! ما هذه الأفعال التى فعلتها ؟ !

فلم أرُدّ عليه ، وخرجت بالصمت عن لا ونعم .

فقال : يا أنحس العبيد ! ! لأسْلُخَنَّ جلدك ، ولأُقطِّعنَّ لحمك إرْباً إرْباً ، ولأكسِّرن عظامَك .

فلما قال ذلك قلتُ له :

إنكَ لا تستطيعُ أن تفعل معى شيئاً من ذلك كلِّه ، لأنك اشتريتَنى عَلَى عيْبى ، وعَيبى أنت تعرفه ، وهو أنى أكذبُ كل سنةٍ كذبة ، وهُناك شهودٌ يشهدون عَلَى ذلك .

فقال :

يا مَامون ؛ أَتُسَمِّى كلَّ ما فعلته كذبة ؟ !

فقلتُ : بل هى نصف كذبة ، وإن شاء الله فى نهايةِ السنة أكذبُ النصف الآخر .

فنظرَ إلىَّ سَيِّدى وهو يكاد يَخرجُ عن طَوْره ، وقال لى :

وَيلكَ ! ؟ ماذا تقول ؟ ! أهذه نصف كذبة ؟ ! وما الذى كنتَ تفعلُ لو كانت الكذبة كلُّها ؟ !

أغْربْ عنْ وَجهى ، فإنى لا أُريدُ أن أَراكَ ، اذهبْ عنى فقد أَعْتَقْتك ! .

فقلتُ : يا سَيِّدى ، ولو أنك قد أَعتَقْتَنى فأنا لا أستطيعُ تركَكَ إلا إِذا تمَّت السنةُ ، وكَذبتُ نصفَ الكذبة الآخر ، ولك حينئذٍ أن تخرج بى إلى السوق ، وتبِيعَنى عَلَى عيْبى ، كما اشتريتَنى عَلَى عيْبى ، لأنى ليسَ لى حرفةٌ أقتاتُ منها .

ـ وكان الوالى واقفاً يشاهدُ هذا الموقفِ ، ويسمعُ ذلك الحوارَ بينى وبين سَيِّدى ، فنهرنى ولَعننى ، وأَنا واقفٌ أَبتسمُ ، لا أُبَالى أحداً ، وأَقول :

لقد اشتريتَنى يا سَيِّدى عَلَى عيْبى .

وانتهى النقاشُ بينى وبينه على هذا وانفضّ الجمع .

وتوجَّه سَيِّدى وأهله إلى منزله ، وسار الناسُ ولا حديثَ لهم إلَّا التَّعجُّب والسخط علىّ وعَلَى فعلتى .

فلما وصلَ سَيِّدى إلى منزله ورآهُ خراباً . وكنتُ أَنا الذى خرَّبتُ معظمهُ ، عرف أنه حقًّا قد أصابَ البيت سُوء ، وأن جزءًا من كذبتى كان صحيحاً ، فنظر إلى زوجته مَدْهوشاً مُتسائلاً :

فقالت :

إن العبد هو الذى أتلفَ أكثر ما فى الدار ، وكسَّرَ جميع الأوانى من البلُّور والصينى .

ـ فازداد سخط سَيِّدى وغضبه وأخذ يضرب يداً بيدٍ ، ويقول :

إنى ما رأيتُ إنساناً ، ولا سمعتُ أن شيطاناً يمكنه أن يفعل فعل هذا المنكود المشئوم ، ثم يقول بعد ذلك إنها نصف كذبة ، فما باله لو أنه كذب كذبةً كاملة ، إنه كان خرَّب مدينة أو مدينتين ، إننى لا أَستطيع السكوتَ عَلَى هـذا العبد ، وسأَذهب أشكو ما فعلَ إلى الوالى .

— وذهب سَيِّدى ، وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيظ إلى الوالى وبسط له شكايته .

فاستدعانى الوالى إليه ، وهُناك أوسَعنى سَيِّدى وأعوانُ الوالى ضرباً ولكماً ، وأنا أستجير فلا أُجار ، حتى غِبتُ عن صَوابى ، فكوُونى بالحديد المحمى فى وجهى ، وباعنى سَيِّدى عَلَى عيْبى .

فما زلتُ أكذبُ ، وأُثير الفِتن بين الناس أينما حللتُ وأخلقُ المشكلات بين سيِّدى الذى يشترينى وبين الناس ، وبقيتُ أنتقلُ من مكانٍ إلى مكان ، ومن مشترٍ إلى آخر ، ومن كبير إلى أمير ، حتى استقرَّ بى المطافُ فى قصرِ أمير المؤمنين . . .

وهذه هى قصتى . . .

فضحك العبدان الآخران ، حتى استلقى كلٌّ منهما عَلَى قفاه ، وقالا لبخيت :

وَيلك ! ! إنك تكذبُ كذباً شنيعاً ، وتسببُ للناس آلاماً شديدة ! .

فضحك بخيت من قولهما مسروراً وقال :

فليقُصْ علينا كلٌّ منكما قصتَه .

فقالا :

يا ابن العَم ، إن قصة كلٍّ منَّا أيضاً طويلة ، تطولُ كلٌّ منهما قصتك ، وقد قرُبَ طُلوع الفجر ، فلنؤَجِّلْ ذلك إلى وقتٍ آخر ،

ولنقم الآن بمهمتنا التي جئنا من أجلها خوفاً من أن يَطَّلع على أمرنا أحد.

— وما لبثوا أن نهضوا ، وأخذوا يحفرون في الأرض بالفأس. ويتناوبون الحفر ، ونقل الأتربة ، حتى حفروا حُفرة تشبه القبر ، وتعاونوا على حمل الصندوق فيما بينهم ، ووضعوه فيها ، ثم أهالوا عليه الترابَ ، وسوّوه فوقه ، وانصرفوا من حيث أتَوْا ، بعد أن أغلقوا الباب .

(٢)

وتنفس غانمٌ الصُّعَداء عند ما تيقَّن من انصرافِهم ، ولكن القلق ساوَرَه ، وشغل بالَه بسر هذا الصندوقِ الذى دفنوه ، وصمَّم على كشف أمره ، ومعرفة ما فيه :

فنزل عن النخلة التي كان يعتليها ، وكان نورُ الفجر قد ابتدأ يشُقُّ بخيوطه البيضاء سوادَ الليل ، طارداً أمامه جحافلَ الظلام ؛ واتجه إلى مكان الحفرة التي دُفن فيها الصندوقُ ، وما زال يُزيحُ عنه الأتربةَ بيديه حتى كشفهُ ؛ ثم ما زال يحتالُ على إخراجِهِ من الُحفرة حتى أخرجه ، فوجده صُندوقاً من خَشَبٍ وله غطاء محكمَ ، عليه قُفْلٌ مغلق .

فتحير غانم فى أمرِ هذا الصندوق ، وفيما يحتويه ، ورجّح أن به مالاً ، أو متاعاً سرقهُ هؤلاء العبيدُ ، وأخفوه هنا ؛ فعوّل على فتحه ، وتناول حجراً كبيرًا من الأرض وأخذ يدقُّ به قُفلَ الصنْدوقِ حتى حطَّمه ،

وفتح غِطاء الصُّندوق ، وما كان أشدَّ دهشتَه عند ما وَجد أن فى الصندوق فتاة مليحة بارعة الحسن والجمال فاتنةً باهتة اللون ممدودةً به ، وعليها ملابس حريرية نفيسةٌ فاخرةٌ ، ومتحلية بحلى من ذهب وجواهر ؛ ففى مِعصميها الأساورُ ، وفى أذنيها قرطٌ ثمين ، وفى عنقها القلائدُ ، وفى أصابعِها الخواتمُ .

ولما رآها غانمٌ تمتم فى نفسه قائلا :

سبحان الله ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله .

وأراد أن يرُدَّ الغطاء على هذه الصبية التى اعتقد أنها ميتةٌ ، مستنبطاً ذلك من سكونها وشحوبها ، وإغماض عينيها ، ولكنَّ قلبه لم يطاوعه على قبرِ هذا الجمال ، ونفسَه لم تهاوِدْهُ على دفنِ هذا الشبابِ . فانحنى على الفتاة وهو مشفقٌ على نفسه أن تذوبَ ، وعلى قلبه أن يتصدَّعَ .

ولكنْ ؛ يا للدَّهشة ، ويا للعجب ! ! أتخدعه عيناه ، هذه هى الحقيقة التى يراها ؟ ! أم هذا خيالٌ لا حقيقة له ؟ !

أيموت هذا الجمالُ ويدفنُ فى التراب ؟ ! سبحانك يا ربى ! ما أجمل قدرتك وأعظم حكمتك ! وعلى أشعة الفجرِ الضئيلة رأى صدرَ الفتاة يعلو ويهبِط ، وعلى نوره الباهت رأى دمَ الحياة يجرى فى وجهها رغم شحوبه .

واعتملتْ بين جنبيْ غانمٍ عواملُ الدهشةِ والعَجَب ، والاستبشارِ والأمل .

الدهشة ، والعَجَبُ لدفن هذه الصبيةِ الفاتنةِ حيةً لم تمتْ ، والاستبشارُ

والأملُ لإمكان إنقاذِها ، والعمل على نجاتها .

ونفذ الهواء الباردُ الخالصُ إلى صدر الفتاة فسمع غانمٌ صوتاً لتنفُّسها ، وصعوبةً في ترديده ، حتى لكأنها في حشرجةٍ ، فأيقن أنها مَغشيٌّ عليها ، وليست بنائمة نوماً طبيعيًّا ، فرفعها من الصندوق ، وأسندها إلى الحائط ، وجعلها في وضعٍ يساعدها على سُهُولة استنشاقِ الهواء ، ودخوله كاملا إلى رئَتَيْها .

وما كاد يعمل لها بعض الإسعافاتِ حتى شهقت الفتاةُ ، ثم شرقت وسَعَلَتْ ، فوثب من فمها شيءٌ مستديرٌ ؛ تأمله غانم ، فعرف أنه قرصُ بنج من بنج إقريطش الذى يكفى لنوم عشرة رجالٍ .

وابتدأت الحياةُ تدب فى الفتاةِ ، فتحركت ، وتململت ، وفتحت عينيها ، وأدارت طرفها فى المكان ؛ ثم أغمضتهما ، وقد شعرت بلفح الهواء لوجهها . وقالت بصوت رخيم شبه هاذية وهى لا تزالُ تحت تأثير البنج ، وتعانى حريقَ عطَشِه :

آه : ما أحلاك يا ريحُ ! ! وما أطيبَك يا هواءُ ! ! ولكن ويلك ! ! فما فيك رِى للعطشان ، ولا أُنسٌ للريان .

وسكتت قليلا ، ثم استطردت تقول ؟ !

أين الزهر ؟ ! أين البُستانُ ؟ !

فلما لم تسمع جواباً ، فتحت عينيها ؛ وأجالت طرْفها ثانياً فيما حولها ، وهى تنادى بصوت خافتٍ متهدِّج :

يا صبيحة ، يا شجرة الدُّر ، يا نورَ الهدى ، يا نجمة الصبح :

فعلم غانم أنها تنادى صاحِباتها وجواريها ؛ فظل ساكتاً حتى يزولَ التأثيرُ الذى بها .

فلما سمِعها تتساءلُ ، وقد أخذتها الدهشة :

من جاءَ بى إلى هنا ؟ ! من أخرجنى من بين السُّتور والخدور ووضعنى بين القبور ؟ !

مَن الذى نقلنى من بين الأشجار والأزهار ، والفواكه والثمار ، إلى تلك الصحارَى والقِفار ؟ ! قال :

يا سيدتى : أنا غانم بن أيوبَ ، ولا علم لى بشىء إلا أنى وجدتك مغشيًّا عليك هنا فى هذا الصنْدوق من أثر بنج عنيف ثقيل ؛ وعملت على إسعافك ونجاتك

فنظرت الفتاة إلى غانم ، وإلى الصندوق ، وإلى المكانْ الذى هما فيه ، وابتدأت تستعيدُ من ذاكرتها ما مرَّ بها ، فأخذت تتكشف لها الحقيقة ، وينبثق أمامها نورُ المعرفةِ ؛ فتنفست تنفسَ الارتياح واستشهدت !

أشهد أن لا إله إلا اللهُ ، وأن محمداً رسولُ الله .

ثم أدارَت وجهها إلى غانم وقالت :

لقد أفقتُ الآن ، وثاب إلىَّ رشدى ، وعاودَنى صوابى ؛ فقص علىَّ أيها الشابُ الطيب حقيقة الأمر .

فقصَّ عليها الشابُ قصته وقصتها .

فقالت الفتاةُ : الحمد لله الذى جعل نجاتى على يد شاب صادق مهذب عفيف مثلك . والآن ضَعنى فى هذا الصندوق كما كنتُ ، واخرج إلى الطريق ، فقد ابتدأ يعمر بالسابلة ، فاكْتَرِ مكاريًا أو بغالا لحمل الصندوق ، واذهب بى إلى منزلك ، ولن يحصُل لك منى إلا كلُّ خيرٍ ، إن شاء الله .

ففرح غانم برأيها ، وأعادَها إلى الصندوق ، وخرج إلى الطريق ، فاكترَى رجلا ببغل ، وأتى به إلى المقبرة ، وحمَّله الصندُوق بما فيه ، وساروا جميعاً حتى دخلوا المدينة ، وتوجَّهوا إلى منزلِ غانم .

ولما فتح غانم الصندوق بعد ذَهاب الحمَّال ، وأخرج الصبية منه — نظرت هذه إلى المنزل ، وإلى أرجائه وأبهائه ، وإلى ما حوى من مفروشات وأحمالٍ — فعرفت أن غانماً من التجار الأغنياء .

فقالت شكراً لله على ذلك .

ثم قالت لغانم : اذهب إلى السوق وائتنا بشىء نأكله .

فخرج غانم فرحًا نشيطاً ، لا تكاد الدنيا تَسَعَهُ لفرط ابتهاجه ، وشدة سروره ، يُلبِّى طلب هذه الفتاة الجذابة الفاتِنة التى ساقها الله إليه ، فوقعت من قلبه موقعاً حَسَنًا ، وتعلّق بها من أول وهلة .

فابتاع لحماً مشويًّا ، وحَلوَى ، وفاكهة ، ونُقْلًا ، وشمعاً ، وأزهاراً ، وعاد إلى المنزلِ ؛ فقامت الفتاةُ ، وتحاملت على نفسها ، وأعدَّت المائدة ، وهيأتها ؛ ثم جلسا إليها يأكلان ، ويتحادثان ، كلٌّ يقصُّ على الآخر

أطرف ما يعرف من الحديث ، وبعدَ أن انقضى النهارُ ، وأقبل الليل ، أعد غانمٌ حجرتى نوم ، لكلٍّ منهما حجرةٌ ؛ ثم أوَى كلٌّ منهما إلى فِراشِه ، وَنام نوماً هادئاً عميقاً .

ولما أصبح الصباحُ خرج غانمٌ ، فاشترَى لحماً وخضراً ؛ فطهت الفتاةُ لهما طعاماً على طريقةٍ لذيذة شهية ، وأكلا معاً ؛ وغانم مغمورٌ بسعادةٍ لا حَدَّ لها لقربه من هذه الفتاة المليحةِ التى أسرت لُبَّه ، وملكت حواسَّه ، وسيطرت على قلبه .

ومرت بضعة أيام ، وهما على هذه الحال ، ازداد فيها حبُّ الفتاة تمكناً من قلب غانم ، وتضاعف إعجابهُ بأدبها معه ، ولطفها فى معاملته ؛ فصمَّم على طلب يدِها ، واتخاذها زوجةً مخلصةً له .

وفاتحها فى هذا الأمر وهو لا يدور بخلَدِه أنها ترفضُ طلبه .

ولشدَّ ما كانت دهشتهُ وارتياعه حينما قالت له آسفةً :

هذا غير ممكن يا غانم .

فقال وهو يغالب انفِعاله ، ويخفى حَسْرته :

وما السبب ؟ !

قالت : الآن آن الأوان لأقُصَّ عليك قصتى ، وأكشفُ لكَ أمرى . . .

اعلم أننى محظية أمير المؤمنين ، وجاريتهُ التى يضعُها فى الصفِّ الأول من بين جواريه . قد ربيت فى قصره منعمةً مُدَلَّلَةً ، تخدِمُنى الجوارى ،

ويُلبِّين إن ناديت ؛ وإشارتى أمر ، وأمرى مطاع . ولما كبرت أعجب بى الخليفة أيما إعجاب ، وأفرد لى المقاصير ، وأغدق علىَّ من حُبِّه وعطفه ، ومن هداياه ، وألطافه ما تراهُ علىَّ من حلى وجواهر .

وكانت زوجةُ الخليفةِ تَغارُ منى أشد الغَيْرةَ ، وتنفسُ على حبَّ الخليفةِ لى ، ورِعايته لشأنى ، واستجابته لرَغَباتى ؛ فكانت لا تكُفُّ عن الكيد لى خِفية ، وقد دسَّت علىّ إحدى جوَاريها ، لتتجسسَ لها على أسرارى ، وتعرفَها أولا بأول أحوالى ، وكنتُ أنا أعلمُ بنواياها نحوى ، وأتوجَّسُ خيفةً . مما تُدَبِّره لى ؛ فأتوقعُ أن يصيبنى شرُّها إذا أصبحت ، وأتوقعُ ذلك أيضاً إذا أمسيتُ ، وكنت أتحفَّظُ ما استطعتُ حتى لا تنال منى منالا .

فلما كان اليومُ الذى وجدتنى فيه بالصندوق ، وكان الخليفة مسافرًا . فعند ما تهيأتُ للنوم شربتُ شرابًا اعتدت أن أشربه قبل النوم كلَّ ليلة ، وبعد أن شربتُه أويْتُ إلى فراشى ونمتُ ، ولم أستيقظ إلا على يديك حينما أيقظتنى؛ وأفهمُ من هذا طبعاً أنى نمتُ وغبتُ عن صوابى بعد تناوُلى إيَّاه ؛ فدسَّت لى الجارية قرص البنج فى حَلقِى حتى لا أفيق سريعاً ريثما يتِمُّون مؤَامرتهم ، وينقلونى فى الصندوق ، ويدفنونى فى القبر .

وقد تم لزوجة الخليفة ما أرادت برشوة الخدم والعبيد بالمال ؛ ولولا أن عناية الله قيضتْك لى وجعلتك تلجأ إلى هذه المقبرة لتبيت فيها — لكنت الآن فى عدد الأموات .

ولا أعلم الآن ما كان من أمر الخليفة حينما عاد من سفره ، ولم يجدنى فى داره ، ولا أعرف إلا الافتراءات الكاذبة التى سيفترونها علىّ ؛ ليخففوا عليه مايلحقه من القلق بسبب غيابى ، ولا بد أن تكون هذه الافتراءات مِن نَوْعٍ يَمَسُّ الشرف والكرامة والعفافَ ، حتى يبغضوه فى جاريته التى يحبُّها .

فلما سمع غانم حديث قوت القلوب ، وعرف أنها جارية الخليفة — أخذته الهيبة والخشية وتراجع إلى الوراء متقهقرًا ، وهو يتمتم ويهمهم بكلمات الاعتذار والأسف .

ونهض فغادر المنزل ، وسار فى الطرقات هائمًا على وجهه يفكر فى أمره ، ويستعرض حالته ومآله ، منقبض النفس ، منكسرَ الفؤاد ، وظل كذلك حتى انصرم ما بقى من النهار ؛ فكرّ عائدًا إلى الدار وقد حمل معه ما اعتاد حمله من طعام ، ودخل على قوت القلوب فوجدها تبكى بحرارة ، ولكنها كفكفت دموعها عند رؤيته ، وبشّت فى وجهه مظهرةً السرور والانشراح ، وتناولا طعامهما ، وناما كل منهما فى حجرته مبلبل الخاطر ، لا يستقر على حال من القلق .

(٣)

أما ما حدث فى قصر الخليفة ، فهو أن زوجته بعد أن دبَّرت خُطتها ، وأحكمتها مع مَن عاونها فعلت فعلتها بقوت القلوب ، ونفذت مكيدتها ؛ فأبعدتها عنها ، ولكنها تحيَّرت فيما تعلل به اختفاءها عند ما يعود

الخليفة ، ويسأل عنها . فدعت بقهرمانة عجوز عندها ، وأطلعتها على سرِّها ، وطلبت مشورتها ، وإرشادها ؛ فقالت لها العجوز :

يا سيدتى لقد قرُب مجئُ الخليفة ، فمُرِى خادماً من خدمك أن يذهب إلى نجار ، ويطلب منه أن يصنع على جناح السرعة هيكلَ إنسان من الخشب ، ومُرِى بحفر قبر فى وسط القصر وأقيمى له مقصورة توقد فيها الشموع والقناديل ، وادفنى تمثال الخشب فيه بعد أن تكفنيه ، واطلبى من كل مَن بالقصر من النساء لُبس السواد علامةَ الحدادِ ، فإذا ما جاء الخليفة انخرطنا جميعاً فى البكاء ، وانشروا التبن فى ممرات القصر وطرقاته ، فيسأل عن سبب هذا الحزن ، فقولوا جميعاً : لقد ماتت قوت القلوب ، وعظم الله أجرك فيها ، وأخبروه أنكم قمتم بدفنها فى القصر لشدة إعزازكم لها ، وفرط محبتكم إياها ، لما كانت عليه من خُلق عظيم ، وطبع كريم ، ولأنها كانت تعطف على الفقير ؛ فتكسو العارى ، وتطعم الجائع ، وكانت تمين المحتاج ، وتغيث الملهوف ، وتفرج كرب المكروب أخبروه بهذا كله مضافاً إليه أنّ ما تعلمونه من حب الخليفة إيَّاها ، وإيثاره لها ، وتقديمها على جميع جوارى القصر ونسائه — هو الذى جعلكم تتخذون لها فى فناء القصر مقبرةً ؛ لتبقَى على الدهر قريبة من عيونكم وقلوبكم .

واعلموا أنكم إن فعلتم ذلك فإنه يصدق قولكم ، ويحمل لكم

جميلكم ، وإن ساوره شكٌ فى الأمر ، ووشى واش لديه بشىء ، وأراد التأكد من ذلك ، وفتح القبر ، لمعرفة الحقيقة ؛ فسيجد هيكلَ إنسان مدرَجًا فى الأكفان ، وإن لم يقتنع ، وأراد فتحَ الأكفان ، والاطلاع على ما فيها ، فتكاثروا عليه بالقول مستنكرين فعلته ، وذكِّروه أن هتك حرمة الميت بعد دفنه من أكبر المحرمات .

فحينئذ سيتهيَّب ، ويخشعُ ، ويرتد عن هذا الأمر ، وتخلصين أنت من هذه الورطة بمشيئة الله .

فاستصوبت زوجة الخليفة رأىَ العجوز ، وسرَّت منه ، وقالت لها :

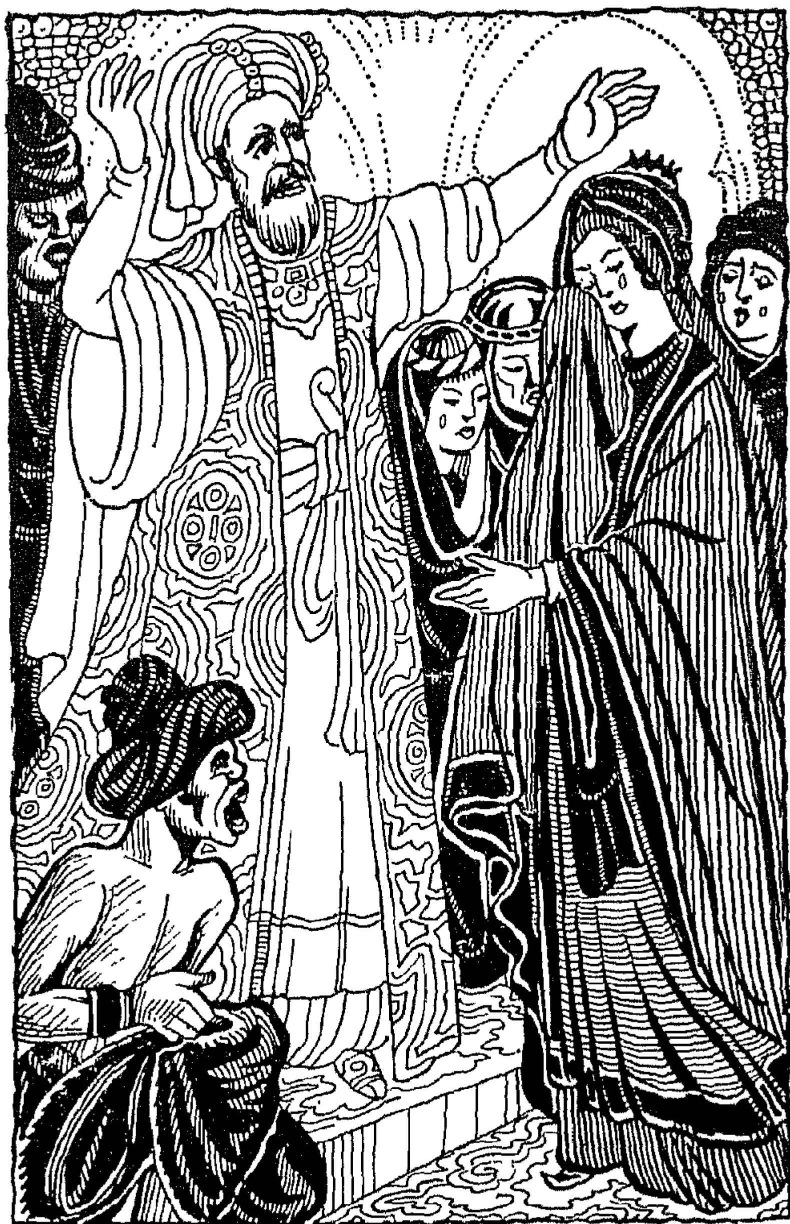
إنى لا آمن أحدًا على تنفيذ هذا الأمر غيرك ، فخذى من النقود ما شئت ، ودبِّرى ما ترين ، على وجه السرعة .

ثم نقدت العجوز من المال ما يلزمُ لتنفيذ تدبيرها ، كما نقدتها ثمن فكرتها .

ولم تُضع العجوز وقتها سُدًى ؛ بل شرعت فى الحال تعملُ ، وكلفت النجار والبناء كلاًّ بمهمته ، هذا يبنى القبر ، وذاكَ يصنعُ النَّعشَ ؛ وابتاعت كلَّ ما يلزم لتنفيذ مشروعها .

ولم تمض بضعة أيام حتى كان كل ما صورته ودبَّرته ورتبته مُعَدًّا على أكمل وَجه .

فأُقيم القبرُ فى وَسط القصر ، وَدُفنت به دُمْيَة الخشب مدرجةً فى



الأكفان ، وأوقدت فوقه الشموعَ والقناديلَ ، وفرشت حوله البُسطَ والسجاجيدَ ، والتفَّت حوله الجوارى يلبسن السوادَ، ويبكين قوت القلوب بالدَّمع الغزير ؛ وأشيع فى القصر خبر وفاة قوت القلوب ، فتملك جميع من به الحزنُ والوُجوم .

وعادَ الخليفة من سفره بعد الغياب ، وكان يهل على قصره فرحاً بعودته ، مستوحشاً لأهله ، مُتلهفاً على أخبارهم ، مشتاقاً لرؤيتهم ، ينتظر وجوهاً متهللة ، ضاحكة لمرآه ، هاشةً باشة لاستقباله ، فإذا به يرى وجوهاً عابسة كالحة ، وعيوناً متكسِّرة باكية ، يطلع عليه بها أهلُ القصر .

ويسأل : ما الخبرُ فيقولون : عظم الله أجرَك فى قوت القلوب .

فيرتاع أشدَّ ارتياع ، ويكاد يهوى ساقطاً على الأرض ، ثم ينظرُ إلى مُخْبِريه غير مُصدِّق ، فيؤكِّدون له الخبر ، ويرشدونه إلى قبرها ، ويقولون له : إن زوجتَه هى التى أَمرت بدفنها فى القصر إكراماً له ، فيتوجَّه إلى زوجته ، ويشكرُها على فعلها ، ويجلسُ بجوار القبر حزيناً مُلتاعاً ، دامع العين ، كسيرَ القلب ، ولكنه بدأ ينتابه الشك ، وتساوره الوساوسُ ، ويُقلقه الارتيابُ ، ويحدث نفسه : يا ويلنا ، أهذه التى ثَوت فى القبر ، وسكَنت فيه — هى قوت القلوب ؟ ! لقد تركْتها صحيحة الجسم ، فَتيّة ، لا تشكو مرضاً ولا ألماً ، فما الذى أصابها ؟ !

حقا ! قد يموت الإنسانُ من غير علّةٍ ؛ وتنتهى حياتُه إذا جاء أجلُه من غير تقدّم ولا تأخّر ؛ ولكن يغلِبُ أن تكون لذلك مُقدّمات ؛

فما هى تلك المُقدِّمات التى انتابَتْك قبل موتِك يا قوت القلوب ؟ !

وظل يُحدِّث نفسَه وقتًا ما ؛ ثم اعترته هزَّة عصبيَّة شديدةٌ ، جعلته يأمر بفتح القبرِ ، للتأكُّدِ من موت قوت القلوب .

ويفتحُ القبرَ ، وتخرجُ منه الدمية المكَفَّنةُ . ولكن الخليفة يُحجمُ ، ويتراجعُ عن الكَشف عنها لضعف أعصابِه عن تحمُّل ذلك المنظر المؤلم المُوجِع إذا كان الخبرُ صحيحًا ، وإشفاقًا على ذلك الجُثمان من امتهانِه ؛ وكانت العجوزُ واقفةً له بالمِرصاد ، حتى إذا مد يَدَه على الكفَن ، أو أَمر بفكِّه . توسَّلَتْ إليه ألا يَفعل ؛ ولكنه لم يفعل .

وبذلك تَمَّت الخُدعة ، وانطَلت عليه الحيلة ، وأيقَن بوفاة قوت القلوب ، وأمر بتَوزيع الصدقات على رُوحها ، وبقراءة القرآنِ حول قبرِها . وهو حزينٌ أوجَعَ حُزن ، ملتاعٌ أشد التياع .

مرَّت الأيامُ وهو يَخرجُ صباح كلِّ يوم ومساءه إلى قبرِها ، ينثُر عليهِ الأزهار ، ويقرأُ ما تيَسَّر من القرآن ، ويستمْطر عليها الرحمةَ والرِّضوان .

وبينما هُو مضطجِعٌ ذات ليلةٍ ، أخذَتْه سِنَةٌ من النوم بعد أن قام بزيارتِه المعتادة للقبر ، وقد جَلسَت عند رأسه جاريةٌ ، وعند قدمَيْه جاريةٌ ، تُروِّحان له بأيديهما .

ولم يَلبَث أن انتَبه من نَومه على قول إحدى الجاريَتَيْن للأُخرى ، وهى تَظُنُّ أنه نائم !

لَشَدَّ ما أنا حزينةٌ آسفةٌ لحال سيِّدى ؛ فهو لا يُحاولُ أن يسَرِّىَ عن نفسِه بعض ما بها من حُزن والْتِياع ، ولا يكُفُّ منذ عاد من سفَرِه ، وعرَفَ وفاة قوت القُلوب المَزْعومة . عن زِيارةِ قبرها كلَّ صباح ، وكلَّ مساء ؛ وهو كما تعْلَمين قبرٌ خالٍ لا شيءَ فيه .

فرفَعت الجارية الأخرى حاجِبَيْها دَهشةً من قول زميلتِها ؛ وقالت مستفهِمَةً : ماذا تَقولين يا قضيبَ البْان ؟ !

أقوتُ القُلوب لم تمت ؟ !

فقالت قضيبُ البان بصوتٍ منخفض !

ألا تعلَمين يا خَيزُران ؟ ! سلم شَبابُ قوتِ القلوب وجمالها من الموت ! !

فازدادَت دهشةُ الجارية ، واشتدَّ عجبُها ، وَهمسَت هى الأخرى قائلةً :

ولمن إذًا هذا القبرُ المُقام فى وسط القصر ؟ !

إنه ليس به إلا دُمية صنعها النجارُ .

فغُمَّ على الجارية خيزران فهمُ هذه الألغاز ، ومعرفة تلك الأحاجِى ، فقالت ! !

وقوتُ القلوب ماذا أَصابها ؟ ! وأين هى ؟ !

فقالت : إن سيدتَنا أرسلت مع جارِيتِها بنجا أثناء سفر سيِّدى ، فدسَّته لها ، فلما سَرَى مفعولُه بها ، وغابت عن وَعْيِها ؛ وضعتاها فى

صُندوق ، وأرسلتاه مع صوابٍ وبَخيت وكافور ، وأمرتاهُم أن يَدْفنوه في أحد القبور .

فقالت خيزران مرتاعة : ويلاه ! ! وتقولين أنها لم تَمُت ؟ ! ! إنها لأشنع ميتة يا أختاه ! !

فقالت قضيبُ البان تطمئنها !

كلا إنها لم تمت .

وكيف كانتْ نجاتُها بعد دفن الصندوق في القبر ؟ !

أجابَتْ : لا عِلْم لي بكيفية نجاتِها ، ولكني علمتُ أنها عند شابٍ تاجر دِمَشْقي يسمى غانمُ بنُ أيوبَ ، وقد شوهِدَت في داره .

فقالت خيزرانُ :

الحمد لله على نجاتِها ، ولقد سرَّني هذا النبأ وأثْلَجَ صَدري ، ولكن ما السببُ في إقامَتِها بمنزل هذا التاجر المدعُوِّ غانِم بن أيوب ؟ !

ولم لَمْ تأت إلى هُنا بعد عودة سيِّدها ؟ !

أخشيت يا تُرى من زوجتِه أم خوفاً عليها ؟ !

فأجابت قضيبُ البان :

لا أدري عن هذا الأمر شيئاً ، وسِيان هي هنا أو هُناك ما دامتْ باقيةً على قيد الحياة .

ولم يُطق الخليفةُ صبراً على التناوُم لسماعِ بقية الحديث ؛ فإنه قد استَنار وعَرف كُلَّ شيء إذ عَلِم أن قوتَ القلوبِ حية لم تمت ، وأنها تُقيم في

مَنزِل تاجرٍ دِمَشقى يُسمَّى غانم بن أيوبَ. فهبَّ قائماً يَعصِفُ به الغَضبُ، ويكادُ الشررُ يخرج من عَينَيه، وتكادُ الدِّماءُ المتصاعدةُ إلى رأسه أن تُفجّرِ شرايينَه.

فأجفلت الجاريَتان وأحسَّتا بسوءِ المصير، وأسرعَتا بالهربِ والفرار من وجهِ الخليفة الثائرِ الغاضب.

وخرج الخليفةُ مُندَفِعاً إلى مجلِسه، واستَدْعَى وزيرَه على عَجلٍ، وأمرَه بصوت الغاضِب الحانق أن يتَوجَّه إلى منزِلِ غانمِ بن أيوب التاجر فى الحالِ ويقبضَ عليه، ويأتى بالجارية قوت القلوب من عنده.

فأطاع الوزير الأمرَ، واستصحب رئيس الشرطة ورجالَه إلى منزل ابن أيوب لمُداهمته.

وكان ابنُ أيوب جالساً فى هذا الوقت مع قوت القلوب يتناولان طعامَ العشاء، فسمعا فى الطريق هرْجاً ومرْجَا، وقعقعة سلاح؛ فأطلت قوت القلوب من إحدى طاقات المنزل، تستطلع الخبر، وقد حدثها قلبُها بحقيقته قبل معرفته.

وأطلَّت قوت القلوب من النافذة، فكان ما رأته مِصْدَاقاً لما توجَّسَتْه وتنبأت به:

رأت الجنودَ قد أحاطوا بالدار إحاطةِ السِّوار بالمعصم، والسيوفُ مجرَّدة بأيديهم، ينتظرون إشارة الهجوم على المنْزل.

فارتدَّت قوت القلوب إلى الداخل مسرعة، وقد شحب لونها،

وارتعشت أطرافُها ، وقالت لغانم بصوت متهدِّج :

انهَض يا غانم ، وانج بنفسك .

فقال مرتاعاً : ما الخبر ؟ !

قالت : إنهم رجال الخليفة وجنوده ، قد أتَوْا فى طلبنا . فأسرعْ بالهربَ ، أما أنا فلا خوف علىّ من الخليفة ، وأنا أعلم أنى لن يُصيبنى سوءٌ على يديه .

فقال حائرًا : وإلى أين أذهب ، وهنا تجارتى وأحمالى ومالى ؟ !

فقالت مهيبةً به تستحثه على الإسراع بالهرب :

أسرعْ وإلا ذهبت نفسُك ومالُك وتجارتُك ، والإبقاء على النفس أَوْلَى من الإبقاء على المالِ ، وما قيمة مال قارون إذا تلِفَتْ نفسُك ؟ ! وأنت إذا قُدِّرَ لك أن تعيش أمكنك أن تعوِّض ما تفقده من تجارتك ومالك .

فنهض وصار يتجه يميناً ويجرى شمالا ، لا يدرى من أين يفِر ؟ ولا مِن أىِّ مَنفَذ ينفذ ؟ وأخيرًا قال :

إننى لن أهربَ ، ولن أفرَّ ، وأدعكِ هنا وحيدة بين أيديهم ، فسأبقى معك ، وليكن ما يكون .

فصرخت فيه قوتُ القلوب قائلةً :

لا تكن أبلَه قلت لك إننى لن يصيبنى مكروه ، أما أنت فستكون فى كفة القدر ، وتحت رحمة الخليفة ، والخليفة قاسٍ غيور ، ولن يُمْهِلَكَ

حتى أفهمَه الحقيقة ، ولكنه سيبادر بإهلاكك ، فانج بنفسك أولًا ، ودع ما بعد ذلك على الله .

فقال : وإلى أين أتجه ؟! وأين المفَر ؟! وقد أحاطوا بالدّار من كل جانب .

فقالت : لا تخف ، وتنكر فى ثياب رجل مِسكين ، واخرج من بينهم قبل أن يَدُقّوا علينا الباب ، ويعرِفوا أننا فطنّا إليهم ، فيكشفوا أمرك .

وبأسرع من لمح البصر ألبستْهُ ثيابًا بالية ممزّقةً ، وأتتْ بِسَلةٍ بها بعضُ اللحم الذى كان منذُ لحظةٍ يأكلان منه كما وضعتْ بعضُ كِسر الخبز وبقايا الطعام .

وقالت : انفذ الآن من بينهم مصحوبًا بالسلامة .

ولم يتّسع الوقتُ بينهما لوداع ، فأخذتْهُ من يده وصارت به إلى الباب وفتحتْهُ له ، وهى مُتوارية خلفه ، وأخرجتْهُ منه .

وكان جماعة من الجند عَلَى وشك دقّ الباب واقتحامه .

فرأوا رجلًا مِسكينًا خارجًا منه ومعهُ فضلة طعامٍ ، فظنّوه ذا حاجة ، وتركوهُ يمضى لشأنهِ ، وأسرعوا هُم بالدُّخولِ إلى الدّارِ ، لمباغتةِ أهلها . . .

وكانت قوتُ القلوب قد كرّت إلى الداخل فسوّت من هيئتها ،

وجمعت حُلِيَّها وجواهرها إلى أموال غانم وتُحفه وطرائفه ، ووضعتها في صندوق .

وكبسَ الوزيرُ ورجاله الدار ، وصاروا يفتشون فى حُجُراتها ، فقابلتهم مُظهرة الدَّهشةَ من دُخولهم ، والفزع من هُجُومهم ، فلما وقعت عيناها عَلَى الوزير ، وعرفها وعرفتْهُ — تقدَّمت منه ، وجثت أمامه ، وقبَّلت الأرض بين يديه تبْجِيلًا له ، وقالت :

يا سيِّدِى جرى القلمُ منذُ القِدم بما حَكم الله .

فأنهضها الوزيرُ وقال :

لا بأس عليك ياَ سيِّدتى . إنه ما أَوصانى إلا بالقبض عَلَى غانم بن أيوب . !

فقالت : يا سيِّدى إنه ليس هُنا ، وقد أخذ تجارته ، وذهب بها إلى دمشق .

فقال دهِشًا : كيف ذلك يا سيِّدتى ، والعلم عندَنا أنه هُنا ؟ !

فقالت : إن خبرهُ ما أخبرتك ، ولا عِلْمَ لى بغير ذلك .

فقال : وكيف أَعودُ بك إلى الخليفة من دُونه ، وما غريمهُ إلا هو ؟ ! !

فهزت كتفيها غير مبدية رأْيًا ، وأَشارت إلى الصندوق الذى جمعت به ما جمعت من نفائس ، وقالت :

رجائى أن تحفظ لى هـذا الصندوق ، وتسَلمهُ لى عند وصولنا إلى

قصر أمير المؤمنين ، فهو مِلْكي الخاص .

فقال : لك ذلك .

ثم صحبها ، وأمر أتباعه بحمل الصندوق ، وأركبها فرسًا ، وسار بها إلى قصر الخليفة ، عزيزةً كريمةً ، مصونةً ، بعد أن أباح للجنود نهب دار غانم بن أيوب .

ولما وصل الوزيرُ بقوت القلوب إلى القصر . أَدْخَلها إحدى قاعاته مع نفرٍ من رجاله ، ودخل هُو إلى الخليفة وأعلمه بما تمّ .

اشتدَّ غضبُ الخليفة ، وحنقُه علىغانم لإفلاته من يده . وبدأ يسخَط عَلَى قوت القلوب ، لظنِّه أنها كانت تُقيمُ عند غانم بن أيوب برغبتها ومحضِ إرادتها .

فأمر بإفراد غُرفةٍ لها وحجزها فيها ، ووكلَ بها امرأة عجوزًا لقضاء حاجاتها .

وأرسل كتابًا إلى عامِله بدمشق ، يطلب منه القبض عَلَى غانم بن أيوب حال وصول الكتاب إليه .

فما أن وصل الكتاب إلى عاملِ دمشق ، حتى أرسلَ المنادى ينادى فى الأسواق :

« من أراد أن ينهب فعليْهِ بدار غانم بن أيوب » .

وتوجه الجندُ إلى دار غانم ، فوجدوا أُمَّهُ وأُخته جالستين تندبانِه ، وتبكيان عليه ، لغيابه الطويلِ ، وانقطاعِ أخباره عنهما ، فقبضوا عليهما ،



ونهبوا دارهما ؛ وذهبوا بهما إلى الوالى .

وسألهما الوالى عن غانم ، فأخبراه أنهما لم يرياهُ منذُ فارقهما من سنةٍ للاتجار ببغداد .

فأمرَ بإخلاء سبيلهما .

فلما عادتا إلى دارهما وجدَتاها قاعًا صفصفًا ليس بها درهم يُنْفقُ ، ولا حَبةٌ تؤكل ، ولا خَلقةٌ تستر عورة .

فزادت أحزانهما ، وتضاعفَ وجدهما ، وخرجتا إلى الطريق هائمتين وهما تبكيان من جفنٍ مقْروح ، وتنعيان من كبدٍ مجروح ، وتشكوان إلى الله ظلم الجبّار للضعيف .

(٤)

أما الحالُ والمآل اللذان صار إليهما غانم فكانا أسوأ حال ، وأشنع مآل.

هام على وجهه فى الطرقاتِ ، يتلصَّصُ تلصّصَ المُجرمين ، ويختبئُ اختباء المشبوهين . ينشَطُ فى الظلام ، ويختفى فى النهار كالخفافِيش .

وافظتَه الطرقات إلى العَراءِ ، فهام بين الرمال والكُثبان ، يتوجّس من كل عابر خِفية ، ومن كل مار ريبة .

عَضّه الجوعُ فوهَن جلده ، وأحرقه الظمأُ فالتهب حلقُه ، وأرمضه الهجيرُ فاستعَرَ جسده ، وقادته قدماه الواهنتان مع دخول الليل إلى

حدود إحدى القرى ، فارتمى بجانب جدار مسجدٍ بها ، يعانى وَقْدَةَ الحُمَّى ، ويُقاسِى تباريحها .

وأتى المصلون إلى المسجد يصلون الفجر ، فسمعوا صوتاً يَئِنّ ، ورأوْا جسداً يرتجفُ ، فاقتربوا من صاحبه يتعرَّفون حاله . وأدركوا أنه غريب مريض . فقال له أحدُهم مَن أنت ؟! ومِن أين أقبلت ؟ ! وما سبب مرضك ؟! ففتح غانم عينيه ، ونظر إلى مُحَدِّثيه ، وبكَى ولم يرُد جواباً .

فَأدرك أنه مريض وجائع ؛ فذهب ، وأتى له بعسل وماء ، وأطعمه وسقاه . ثم نقله هو ورفاقُه إلى غرفة ملاصقة للمسجد ومرضوه على قدر ما يعرفون ، ثم انصرفوا إلى أعمالهم ، ومضوْا إلى حال سبيلهم .

وما زال هذا شأْنُهم ؛ يسألون عنه ، ويعودونهُ ، ويتناوبون كل يوم فيما بينهم إحضار شيء من الطعام والشراب اللذيْن يُصْلِحانه ، ويُناسبان مرضه ؛ وظلوا كذلك شهرًا كاملا .

أما هو فقد ازدادت حالتُه سوءًا على سوء ، واشتد جسمه ضَعفا فوق ضعْف ، وبدا عليه الُهزال . فغارت عيناه ، وبرز خدَّاه ، وذاب شحمُه ، ودَقّ عظمه ، وصار جلدًا على عظم ؛ تقتحمه العين ، ويبذُؤه النَّظر ، ويزكم الأنفَ نَتْنُ الرائحة المنبعثة منه ، وتتألم النفسُ حسرة عليه ، وتقززًا من أدرانه .

واجتمع نفرٌ من أهل البلدة يتشاورون فى أمر هذا الغريب العليل ، وما ينبغى عليهم فعله معه ، وما تُمليه المروءةُ إزاءهُ . فارْتأوْا أن يحملوه

إلى دَار الطبِّ ببغدادَ ، لعله يجد هناك من عناية الأطباء والممرضين ما يزيل عنه عِلَّتَه ؛ وكان الليل قد أقبل فأجَّلوا ذلك إلى الصباح .

وفى تلك الليلة حطت بجوارِ المسجد امرأتان بائستان ، لا تسترُهما غير أسمالٍ بالية ، تبغيان من جِداره سِتارًا يسترُهما ، ومن حائطه مَلْجَأً تأويان إليه حتى الصباح .

ووصلت إلى اذانهما أناتُ العليل الخافتة المتقطعة ، فرثَتا لحاله ، وخفَّتا إليه ، تسألانه ما به ؟ ! وحاولتا العملَ على تخفيف آلامه . فقد أشعرهما بُؤْسُهما مقدار بُؤْسه ، وأحسَّتا لآلامهما مبلغ آلامه .

وإن كان لا يزال بالمريض بقية إدراك ، وفضلةٌ ضئيلةٌ من إحساس بالحياة — أعانته على أن يدرك أن فى نفسه حنانًا لا يدرى سببه نحو هاتيْن المرأتيْن البائستَيْن، أو أدرك أنه يضمُّهما وإياه البُؤْسُ والحِرمان ، والضَّنَى والآلام ، وظُلْمُ المجتمع القاسِى الذى لا يرحَمُ ؛ وما أشد قسوته وأمَرَّها إذا أذاقها بريئًا لم يرتكب ذنبًا ، ولم يقترف إثْمًا .

وحاول أن يتحدَّثَ إليهما فلم يستطع أن يفعلَ أو يردَّ جوابًا ؛ وإنما استطاع أن يُشير لهما إشارةً خفيفةً إلى حيث كان بجانب رأسه بعض فضلات من طعام ، وكسرات من الخبز ، جاد عليه بها أهل الخير ، ولم يستطع أن يذوقها لشدَّة مرضه ، فلعلهما تجدان فيها زادًا يردُّ جَوْعَتَهُمَا .

ولم ترفضْ الفقيرتان ، لأن كَلَبَ الجوُع عضَّهما ، فأكلتا من طعامه، وقضيتا ليلتهما بالقربْ منه .

ولما أصبح الصباحُ حضر إلى المسجدِ نفرٌ من أهلِ البلْدَةِ، وَمعهم حَمَّالٌ وجمَل، وأتَوْا إلى غَانمٍ فحملوُه فيما بينَهم عِظامًا ملفوفةً في ثياب مُهلهلةٍ قذرة، حالَ لونُها مما تراكمَ عَليْها من أوْساخ. يظهرُ من بينها وجهٌ معْروقٌ، يتوسطه عَينانِ مُسْبلتَان كادَ يَخْبُو منهُما بريقُ الحياةِ. ووَضعوه فوقَ الجملِ، وقالوا لصاحبه:

اذهَبْ بهذا المريض إلى بغدادَ، وأنزله أمامَ بابِ المارستانِ، لعَلَه يعالج، وتُصيبه العافيةُ؛ ولك عند الله الأجر والثوابُ.

فقال الجمال: سأحمِله إلى المارستان، وأجْرى على الله، وإن كنتُ لم أُرْزَق في هذا اليوم شيئًا. وسار به الجمال؛ والمرأتانِ الفقيرتان تنظُرانِ إلَيْه، وتبكيان لحاله، وتقول كبراهما: إني لأجدُ ريح غَانم.

فترد الصُّغرى! وفي وَجْهه مَلامحُه وقسماتهُ، وفي صَوْته الخافت نبراته، وفي جَفنيه المنكسرين الذَّابلين ألحاظه، وتحومُ حولَ شفتيه ابتسامةٌ شاحبة كأنها ابتسامته! كأنه هو.

ثم تنصرفان تجددان الحزنَ، وتُطلِقان الدُّمُوع.

الكُبرى على ولدِها، والصُّغْرىَ على أخيها.

وكان الولدُ، والأخُ. هو غانمُ بن أيوب.

وكان أمَامَهما، وبين يدَيهما، ولكنهما لم تعْرِفاه، ولم يعْرِفهما، فقد نالَ منه البؤسُ حتى غَيره، ونال منهما الحزن حتى غيرهما، فلم تعرف الأم ولدها، ولا الأختُ أخَاها، إلا أنهُما وجدتا ريحه، وأحستا عطفًا

عليه ، وحنانًا إليه ، لم تُدْرِ كا سَببه . ووصل الجمال بالعليل إلى بغداد ، وسار به إلى المارستان ، وكان الوقتُ ليلًا ، وأنزله ببابه ، حتى يخرج الخدَم فى الصّباح فيجدوه بالبابِ ، فيأخُذُوه ، ثم تركه وانصرف .

ولما دبَّت الحياةُ فى الطرقات ، وخرج التجارُ إلى متاجرهم ، وجدوا غائمًا مُلْقى أَمامَ باب المارستان تتردد أنفاسُه ببطءٍ وخُفُوتٍ .

فاجتمعوا مِن حَوْله بعضهم يقول إنَّه رجُلٌ مَيِّتٌ ، وبعضهم يقول إنه لايزال على قيدِ الحياةِ .

وكان شيخُ السوق مَارًّا ، فلما رَأَى الناسَ مجتمعين ، فسألهُم عَلاَمَ يجتمع هؤلاء الناسُ ، فوصَفوا له حال المريض ، ففرّق الناس ، ونظر إلى وجه المريض وقال: إن هذا المريض يحتاجُ إلى أيد رحيمة ، وعناية بالغةٍ ، ولو تلقته أيدى الخدم بالمارستان يوما واحدًا لما اهتموا به ، ولمات أمامَهم كما يموت الحيوان ، فإنهم قساةٌ غلاظ القلوب ، لا يعرفون رحمة ، ولا شفقة .

وكان هذا الشيخُ رجلاً ذا مرُوءةٍ ، ورحمةٍ ، فأمر غلمانه بحمل المريض إلى داره فحملوه إلى الدار ، وهو معهَم ، فلما وصلوا ، قال لامْرأته :

رَجَائى إليك أن تمرضى هذا المريض لعله يُشفى ، وسَيكون جَزاؤكِ عند الله عظيما .

فقالت : سمعاً وطاعةً ، وعلى الرَّحْبِ والسَّعة .

وكانت المرأة لا تقِلُّ عن زوجها عطفاً وشفقةً ورحمةً ، فتهيأتْ لهذا الأمر راضيةً ومنحت المريض كثيراً من وقتها ، وعنايتها ، ورعايتها .

فأتت بماءٍ ساخن ، وغسلتْ له أطرافه ، واستبدلتْ بملابسه ملابس أخرى نظيفة بمعونة بعض خَدَمِها ، ورشَّتْ على وَجْهِه ماءَ الورد ، فأفاق من غَشيته ، وفتح عينيه فسقتهُ شراباً دافئاً أنْعش جِسْمَه ، وأجرى فى عُروقِه دمُ الحياةِ ، فأرْقدته على فراش ، ودثَّرته بالأغطية .

(٥)

وظَلَّت قوتُ القلوبِ بمحبسها بعد غَضب الخليفة عَليْها ما يُنِيف على الثمانين يومًا، تُعانى الوَحْدة ، وتَتَعَلَّلُ بالآمالِ إلى أن كان يومٌ اتفق مرور الخليفة فيه بمكانها ، فَطَرقَ سمْعه صوتها تُنْشِد الأشعارَ الحزينة ، وتَترَنَّمُ بالأصوات الباكية ، فتمهَّلَ فى سَيره يَسْتَمِعُ ، فسمعها تقول وهى تبكى :

آه يا غَانم ! ! ما أحسنك ! ! وما أعَفَّ نفسك ! ! أحسنتَ إلى من أساءَ إليكَ ، وحفظت حرمة من ضَيَّع حَرْمَتَك ، وحفظت ودَّ من لا يحفَظُ الوُدّ ، وجَامَلْتَ من لم يُجامِلك ، وسَباكَ وسَبي أهلك ؛ ولابد أن تقف أنت وأمير المؤمنين بين يدى حَاكم عَادل ، وتنتصِفُ منه ، يوم يكونُ القاضى هو الله ، والشهودُ ملائكةُ الله .

فلما سمع الخليفة قولها ، وبكاءها ، خشع قلبه ، وأدرك أنه غَبنها ، وظلمها فقصد إلى جناحه ، وأمر باستِدْعائها إليهِ .

فأتت ووقفت بين يديه مُطرقةً حزينةً .

فقال لها : ياقوتَ القلوب ، أَراكِ تتظلمين منى ، وَتنسُبيننى إلى الغدر

وتزعمين أنى أسأت لمن أحسن إلىَّ، فمن هو الذى حفظ حرمتي، وانتهكت حرمته ، وستر حريمى، وحفظ علىّ عِرْضى، فلم أحفظْ عِرضه ، وجاملنى، ولم أُجامِلْهُ ؟ .

فسكتت ، وأطْرَقت ، وانهمر من عينيها دَمعٌ غزير .

فقال : تكلمى ، ولا تخافى ، أريحى قلبى ، أرح قلبك .

قالت : هو غانمُ بن أيوبَ ، فإنه أنقذ حَياتى ، وآوانى ، وما مَسّنى منه سوء ، وأراد أن يتزوج منى ، فلما علم أننى مملوكةُ الخليفة أحجم ، وتهيب احتراماً له ، وعاملنى معاملة الأخ الكريم .

فقال الخليفة ، بعد أن أطرق هُنيهة : سبحان الله ! ! وأين هو الآن ؟

فقالت : لا علم لى بمكانه ، وقد انقطعت عنى أخبارُه ، وأظنه شريدًا طَرِيدًا ، هَائمًا على وجهه ، فإنه لا مال معه ، ولا مأوى له ، فقد سمعت أن رجالك نهبوا داره بدمشق ، وشردوا أهلَهُ .

فعاد الخليفة إلى إطراقه مفكراً ، ثم رفع رأسه إلى قوت القلوب ، وقال : حقًّا . لقد ظلمناكِ ، وظلمنا صاحِبَكِ ،وعَلَىّ أن أُعَوِّضَك عما لحقك فتمنى عَلَىّ يا قوت القلوب ، تنالى ما تتمنين ..

فقالت قوت القلوب : أحقًّا يا مولاى تنيلنى ما أتمنى ، ولا تبخل عَلَىّ بِه ؟ !

فقال : إنى وعدتك وعد رجل حُرّ ، ووعد الحرِّ دينٌ عليه .

قالت : تمنيتُ عليك يا أمير المؤمنين غانم بن أيوب .

قال : إنَّهُ فى أمَانٍ .

قالت : وإن أحضَرْتَهُ تهبُنِى له ؟

قال : أَهَبُكِ له هِبةَ من لا يرجعُ فى عَطَائِه .

فكادَتْ أن تَطيرَ من فوقِ الأرضِ من شدَّةِ الفَرحِ ، وقالت : إذن ائذَنْ لِى فِى البَحْثِ عنه .

قال : افعلى ما بَدَا لَكِ .

وخرجتْ قوتُ القلوبِ من لَدُن الخليفةِ لا تَسَعُها الدُّنيا ابتهاجاً وسُرُوراً ، فقد نالتْ ما كانتْ تحلمُ به .

نالتِ الحرِّيةَ ، وأخذتِ الأمانَ لغانِم ، ووُهِبَتْ له .

آه ما أَحْلَى الحياةَ ، لوكانَ بِجوارها الآن غانم .

وصدمتها الحقيقة المُرَّة .

أين منها الآن غانم ؟ ! ما أدراها ! ! إنه قد يكون خلفَ الديارَ هارباً مما جرى عليه بسببها ؟ من يعلمها بمقره ؟

وانقلب فرحها ترحاً ، وسرورها حزناً ، وابتهاجها غمًّا ونكداً .

لا بدّ لها أن تجد فى البحث عنه، باذلةً فى سبيل ذلك الجهد ، والوقت والمال . ولم تتوان ، فاتجهت من فورِها إلى صندوق مالها ، وأخذت مبلغاً كبيراً منه ، وأرسلت رسلها إلى المساجد ، ومجالس الفقراء ؛ فأعطت ، وتصدقت ، ووهبت ، مفتتحة عملها وسعيها بفعل الخير ، وترجو من ورائه أن يعثرها اللهُ عليه بين هؤلاء .

وفى اليوم الثانى ، أخذت مبلغاً آخر ، وأرسلت به رسلها إلى السوق التى كان يتجر فيها غانم،وأمرتهم أن يذهبوا إلىشيخ السوق ، وأن يعطوه المال ، ويقولوا له : تصدق بهذا المبلغ على الغرباء ، وكل من كان منهم فى عوز ، أو ضائقة ، فالسيدة قوت القلوب تسد عوزه ، وتفرق ضائقته .

وفى اليوم الذى يليه ، أرسلتْ رسلها إلى شيخ سوق الصَّاغة ، وعملُوا معه مثل الذى فعلوه بالأمس .

فقال لهم : أَبلغوا سيدتكم هل لها أن تذهب إلى دارى ، وتنظر فى أمر شابٍ مسكينٍ غريبٍ عندى ، ألحَّ عليه المرضُ ، وأضنته العلَّةُ .

فلما أبلغوها حديث شيخ سوق الصَّاغة ، خفق قلبها ، وأحست به يتمشى بين ضلوعها ، وخطر لها أن يكون هذا الغريب المريضُ غانم بن أيوب .

فذهبتْ إلى الشيخ ، وقالت له : حباً وكرامة . أرسل معى أحدَ غلماتك يرشدنى إلى منزلك ؛ لأرى هذا الغريب المكروب .

فأَرْسَل معها صبيًّا صغيرًا ، أوصلها إلى الدار ، فدخلت إلى زوجة الشيخ ، فعرفت أنها قوت القلوب ، جاريةُ الخليفة ؛ فقامت إليها ، ورحبت بها ، ولما عرفت ما تريد صحبتها إلى القاعة التى بها غانم .

و نظرت قوت القلوب إلى غانم ، ولكنها أنكرته ، وغُمَّ عليها الأمر ؛ رأت جسداً ضامراً تحت الأغطية لا يكاد يرى ، يعلوه رأسٌ معصوبٌ بعصابَة ، تبرزُ فيه عظمتان ناتئتان هما وجنتاه تنحدران إلى أخدودين

غائرين وهوّتين داكنتين ، هما عيناه، فقالت :

رباه ! كن فى عون هذا المريض البائس ، واكتب له الشفاء .

يا ترى من يكون ؟ ؟

هذا ما تمتمت به قوت القلوب بينها وبين نفسها؛ ثم التفتت إلى امرأة الشيخ وقالت لها :

من أين جاءكم هذا الغريب ؟ ؟

أجابت : وجده زوجي ملقى فى الطريق ؟ ولا نعرف من أمره شيئاً ، وإن كُنا نرجح أنه كان من أهل العز والنعمة ، وجار عليه الزمان .

فقالت قوت القلوب راثيةً : حقاً إن الغرباء مساكين ، وإن كانوا أمراء فى بلادهم ، ثم سألتها عما يتناوله من أغذية وعلاج ، فعرفتها بما تعده له ، فعاونتها فى إعداده وتحضيره ، وبقيت بجوار المريض بعض الوقت ، ثم انصرفت ، وفى قلبها شعور غامض من الحنان والحب والشفقة بعد أن وعدت صاحبة الدار بمعاودة زيارتها للمريض .

ودأبت قوت القلوب على تقصى الأخبار عن غانم والسؤال عنه ، ولـكن دون نتيجة ، فلم تقع له على خبر، ولم تسمع عنه نبأ .

وفى ذات يوم أتاها شيخ السوق الذى يأوى فى داره غانما ، وكانت عقامها بقصر الخليفة ، فاستأذن فى الدخول عليها ، فأذنت له، فقال لها :

يا سيدة المحسنات ، قد دخل مدينتنا اليوم ، امرأةٌ وابنتُها ، تنطق سماتُهما بالبؤس والشقاء ، وتعبر قسماتُهما عما لقيتاه من ذِلّةٍ وهوان ،ويكسو

وجههما الخجل والحياء ، ويقيني أنهما كانتا من أهل النعمة والثراء ، وغدر بهما الزمان . وهما لابستان ثياباً من شعر ، وفي رقبة كل منهما مخلاة من خز ، وقد أتيت بهما إليك ؛ لتأويهما ، وتكفيهما شر التسول ، ولكِ عند الله حسنُ الجزاء .

فقالت قوت القلوب :

يا سيِّدى ، لقد عطفت قلبي عليهما ، فأين هما ؟

قال : بالباب .

قالت : إليّ بهما .

وأمرت الخادم باستدعائهما .

فلما دخلتا عليها ، ونظرت إليهما ــ وجدتهما ذواتى حسنٍ وجمال ، رغم شحوبهما وهُزالهما ، ورأت علامات الحزن مرتسمةً على وجهيهما ، فرثت لحالهما ، وقالت :

مرحباً بكما ، من أنتما ؟

فردَّت الصغيرة : أنا اسمى فتنة ، وهذه أُمى .

فقالت قوت القلوب : إنك فتنة للناظرين كاسمك يا فتنة ، ومن أين أقبلتما ؟

فانهمرت الدموع من عيني الفتاة ، وخنقتها العبرات ، فلم تستطعِ الرد .

فقال الشيخُ : لا بأس عليك يا بنيتى نحن نحب الفقراء ، ونأخذ بيد ذوى الحاجة والضعفاء ، فسرى عنكِ ، ولا تبتئسى ، والله يكاؤكِ ،

ويرعاك . ولعل الله أراد خيرًا حينما ألهمنى أن آتى بكما إلى أعطف النساء، وأرفقهن قلبًا وأكثرهن حنانًا .

فقالت قوت القلوب ، وقد أثر فيها ما هُما عليه من البؤس وَالضَّنك : صدقت يا سيدى ، فإنهما من أهل نعمة وعزٍّ وجاهٍ .

ولم تتمالك المرأتان نفسيهما ، فأجهشتا بالبكاء ، فبكت لبكائهما قوت القلوب ، ثم قالت :

لا تخافا ، ولا تحزنا ، فسيعوضكما الله خيرًا ، وسيبدل لكما بالبؤس نعيما ، وبالذل عزًّا ، وبالضيق سعة .

فقالت الأم : واجمعنا يا إلهى بحبيبنا وعزيزنا ولدى غانم بن أيوبَ .

فبُهتت قوت القلوب لقول المرأة ، وعرفت أن هاتين المرأتين هُما أم غانم ، وأخته ، وأنهما مشردتان فى الأرض تبحثان عنه ، وأن مطلبهما هو مطلبها ، وأن غايتَهما هى غَايتها .

فاهتزّ قلبُها حنانًا لهما ، وازدادت نفسُها حسرةً عليهما ، وعلى ما آلت إليه حالهما ، ولا سيما أنها كانت السبب الأول فيما أصابهما من سوءٍ ، ووَقع بهما من محنة .

فتنهدت ، وأطرقت برهةً إلى الأرض ، ثم رفعت رأسها ، وقالت : لا بأسَ عليكما ؛ فاليومُ أولُ سعادتكما ، وآخرُ شقائكما ، وسيجمعكما الله قريبًا بمن تحبان ، فلا تيئسا من رحمة الله .

ثم طلبت من الشيخ ، أن يأخذهما إلى منزله ، ويوصى زوجته بهما

خيراً ، ولتعمل على إكرامهما ، فتدخلهما حماماً ، وتلبسهما ثياباً حسنة ، وتفرد لهما حُجرةً ، وأعطته نظير ذلك جملة كبيرة من المال .

وفى اليوم الثاني ركبت قوت القلوب ، ومضت إلى منزل الشيخ ، فقابلتها زوجته بالترحاب ، ووجدت أم غانم ، وأخته جالستين ، وقد أظهرتهما الملابس النظيفة الثمينة فى مظهر جميل ، وبدت عليهما مخايل النعمة والجاه . فجلست معهما تتحدثُ وقتاً ، ثم قالت لصاحبة الدار :

ما حال مريضك ؟

فقالت زوجة الشيخ : على ما هو عليه .

قالت : هيَّا بنا إليه لنعُودَه .

فقُمن إليه جميعاً ، وجلسن عنده .

وكان غانمُ قد ابتدأ يصْحُو ذهنهُ ، ويتذكرُ حاله ، وحبّه ، ولوعته ، وتشرده ، فترتسم أمام عينيه صورة جميلةٌ قبيحةٌ مضيئةٌ مظلمةٌ ، ليس لجمالها ونورها حدودٌ ، وليس لقبحِها وإظلامها حدود كذلك .

وبينما هو راقدٌ شاردُ العقل ، مختلطُ الفكر ، سابحٌ فى تأملاته ، يستعرض ماضيه ، طرق سمْعه صوت النِّسوة ، وهُنّ يتحدثْن ، وسَمِعهنَّ يتادين قوت القلوب .

فخفق قلبه ، وفتح عينيه ، وأدار رأسه إلى ناحيتهن ، ونادى بصوت ضعيف خافت : يا قوت القلوب :

وبدافع لاشعورى هبّت قوت القلوب ملبيّةً النداء ، قائلة :

نعم ياحبيبي .

ونظرت إلى وَجهِهِ فتيقَّنَته ، فقالت :

إنه غانمُ بنُ أيوب !

فقال : نعم أنا هو ! اقتربي مني ! تعالى إلىَّ ! ناوليني يدكِ !

فاتجهت إليه ، ووقعت مغشيًّا عليْها .

وسمعت الأُم صوت غانم ، ورنَّت فى أذنها نبراته ، والتقت عيناها بعينه ، فصاحَتْ :

غانم ! ! ابنى ! ! حبيبى ! ! قلبى ! ! كبدى ! ! حياتى ! ! نور عينى ! !

وكذلك سمعت الأخت صوت غانم ، ورن فى أذنها نبراته ، والتقت عيناها بعينه ، فصاحت :

غانم ! ! أخى ! ! عضدى ! ! ساعدى ! !

ثم سقطتا مغشياً عليهما من شدَّة الفرح .

ولما أفقن التففن حول غانم ، وأخذت أمُّه ، وأخته تقبِّلانه ، وتسألانه عن حاله ، وصاحبة الدار تهنئهن جميعاً باجتماع شملهن بعد طول الغياب .

وأخبرت قوت القلوب غانماً بعفو الخليفة عنهما بعد أن عرف منها طيب خصاله ، وحسن أخلاقه ، وبأنه قد وهبها له ، وبأنه يود أن يراه

ففرح غانم ، وانتعشتْ نفسه ، وقويتْ رُوحه ، واشتد عزمهُ ، وشعر أنَّ الشفاء يُعاوده سريعاً ، فقامَ ، وجلس معهُن ، يسمعُ منهن ،

ويسمعْن منهُ ، فكأنه لم يدخل جسمه مرضٌ . وكأنهن لم يتعذّبن من أجله ، فبردت القلوب ، وارتوت الأكبادُ ، واستروحت النفوس .

واستمهلتهم قوتُ القلوب بعض الوقتِ ، وخرجتْ ، ثم عادتْ ومَعها صندوق الجواهرِ والمالِ والأشْياء التى جَمعتها من دار غانم ، يومَ قبض عليها .

وأخرجت للشيخ مبلغاً من النقود وطلبت منه أن يبتاع لكلٍّ من من غانم وأمه وأخته حُللاً من أنفس ما فى السُّوق ، وأقامتْ فى منزل الشيخ بضعة أيام تعنى بأمر غانم وأمِّه وأخته ، وتطعمهم مساليق الدجاج والفاكهة ، وتسقيهم ماء السكر والزّهر .

وكان قرب قوت القلوب من غانم من أكبر العوامل التى ساعدت على إصلاح نفسْه وعجلت بشفائها .

أمَّا أمه وأخته فقد فاضت بهما الهناءةُ والسعادةُ ، وعادت إليهما صحتهما وحيويتُهما ، وزادت فتنةُ ففاضت ملاَحتها ، وصارت حقّاً ، فتنة للناظرين .

وعادت قوت القلوب إلى قصر الخليفة ، وطلبت الإذن لها بالدخول عليه ، فأذن لها .

فدخلت عليه ، وقصّت له خبر غانم وأمه وأخته .

فقال لها : علىّ بغانم .

فرجعت إلى غانم وأعلمته رغبة الخليفة ، ثم أعدّت له الحمام فاغتَسَل

وألبسته حلة جميلة ثمينة ، وأعطته مبلغاً كبيراً من المال ، وقالت له :

ابذل العطاء لحاشية الخليفة ، ولا تبخل ، وعليك فى حضرة أمير المؤمنين بثبات الجنان وفصاحة اللسان ، وعذب الكلام .

ثم صحبته هو وأمه وأخته إلى قصر الخليفة .

وكان الخليفة فى مجلسه يحيط به وزراؤه ، وأرباب دولته ، وأعلن الحاجب اسم غانم بن أيوب ، وكان جميع الجالسين يعلمون غضب الخليفة عليه ، ثم رضاه عنه ، فشخصت أبصارهم نحو الباب ، يتلهفون على رؤيته

ودخل غانم ؛ فرأوه شابًا وسيما فارعًا ، وإن كان به بعض الضمور والشحوب من أثر مرضه النفسى الطويل .

ونهض الوزير الذى ذهب يوما للقبض عليه ، فقدمه إلى الخليفة والجالسين ، وألقى غانم التحية ، ثم أطرق إلى الأرض ، وتحدث بلسان فصيح ، ومنطق سليم ، سر الحاضرين ، وبدا على وجه الخليفة الرضا عنه ، وقال له :

قص على ياغانم قصتك ، واذكر كل ما لاقيت ، وما قاسيت .

فقص غانم قصته من يوم أن خرج بتجارته حتى مثوله بين يديه .

فعجب الخليفة والسامعون أشد العجب وقال :

حقًا يا غانم ، لقد قاسيت كثيرًا ، وظلمك الزمن ، وقسا عليك ، وإن شئت فقل : إنى أنا الذى ظلمتك وقسوت عليك ، وسأكفر لك عن هذا كله لأبرئ ذمتى ، وأرضى ضميرى .

فقال غانم : يا مولاى ، العبد وما ملكت يداهُ لسيِّده .

فَسُرَّ الخليفة منه ، وسأله عن أمه وأُخْتِه ، فقال :

إنهما بِرضاه فى أسعدِ حالٍ ، وأهنأ بالٍ ، وأرغد عيش ، وأكرم مَنزل .

فأنعم عليه الخليفة ، وخلع عليه ، وأمَرَ بإفْرَاد قصر له ولأمه وأخته .

وبعد عدَّة أيام دَعا الخليفةُ غانمًا إليه ، وكان قد سمعَ بفَرْط جمال أخته فتنة ، وقوَّة جاذبيَّتها ، وكثرة أدَبها ، ورجاحة عَقْلِها ؛ فخطبها منه

فَفَرِحَ غانمٌ ، وقال : يا مولاى إنه شرفٌ ليْس فوقَهُ شَرَفٌ تَغْمُرُنا به ، فهى جارِيَتُك ، وأنا مَمْلوكُكَ .

وفى الغد حَضر القاضى ، واجتمع الشهود .

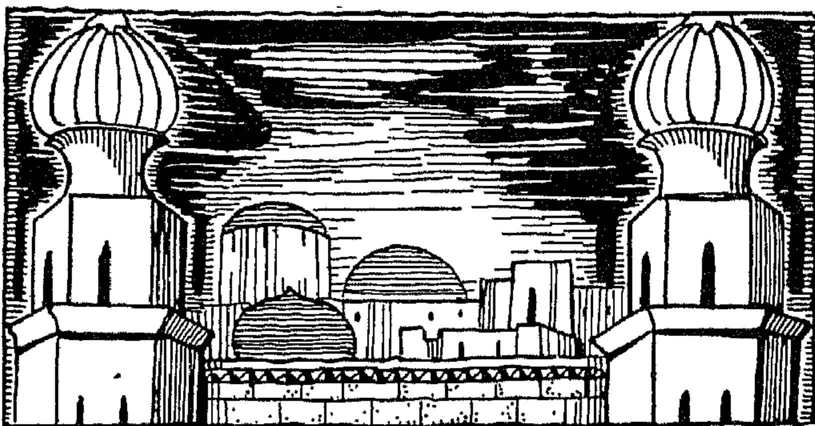
وعقد للخليفة على فتنة .

وعقد لغانم بن أيوب على قوت القلوب .

وانتقلت قوت القلوب من قصر الخليفة إلى قصر غانم .

ولكنها لم تخل مكانها من قصر الخليفة ، ولا من قلبه .

فقد أحَلَّت محلَّها فتنة التى احْتلَّت من قلبه المكان الأوَّلَ .



مدينة النحاس

(١)

كان فى الأيام الخوالى بدمشق خليفة يُسمّى عبد الملك بن مروان ، وكان يجتمعُ إليه أكابر دولته ومُسامِرُوه كلّ ليلة فى دار ضيافته وسَمَرِه ، يتناولون بالحديث طرائف الحوادث ، وأخبارَ الأمم السّوالف ، ومَرّ بهم الحديثُ على سيدنا سُليمانَ بن دَاوُدَ عليهما السلام ، وما وُهِبَ له من مُلك لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟ فسخر الله له الرياحَ تجرى بأمره رُخاءً حيثُ أصاب ، والشياطين كلّ بناء وغواص ، وعلّمه مَنطِق الطّير ، وعَنَتْ له الوحوشُ وغيرها من صنوف الحيوان ، وكانَ يحبس العُصاةَ من مردة الجنّ فى قماقم نحاسية ، ويُحكم غطاءها ويختمها بخاتمه ، ثم يلقيها

فى البحر ، جزاءً بما اجترحوا من سيئات وارتكبوا من آثامٍ ، فقال أحد السّامِرَة ، وكان طالِبَ بن سهل :

رَكِبَ جماعة فى فُلْكٍ لَهمْ ، وجرى بهم على أَدِيم البحر يؤمّونَ به بلادَ الهندِ ، وفى ليلةٍ طويلة تراكمتْ ظلماتها ، إذا أخرج أحدُهم يده لم يكدْ يراها ، هبّتْ عليهم ريح عاتية ، فساقَتْ فُلكَهُمْ إلى أَرضٍ أُخرى لا يَعرِفُونها وهُمْ فى فزَعهم مُستسلمون .

ومَا لاح لَهمْ وجه الصباح حتى جاءهُمْ من مغاراتٍ فى تلكِ الأرض قَومٌ سُود عُراة ترتفعُ أَصواتهم ببلبلة لا يفقهونَ لها مَعنى ، ولا يَفهمون لهم حركةً أو إشارة ، فخرجوا بذلك من فزعٍ إلى فزع ، ومن شِدّة إلى شدة ، وكادتْ قلوبُهم تسقط من صُدورهم تحت أَقدامهم ، وسرعان أن سَرّى عنهم رئيس القوم الذى كان يَعرف اللغةَ العربية ويتكلّمُ بها من دون قومهِ ، فناداهم أنْ يحضروا بين يديْه ، فلمْ يجدوا مناصاً من الاستجابة لندائهِ والحضور إليه ، فحياهُم وتلطَّف فى الحديث مَعَهم حتى أَنِسُوا واطمأنتْ قلوبهم ، ثم سألهم عنْ دين الإسلام ، فقالوا : لا نَعرف عنه شَيئاً ، إذ كانوا ممنْ لم تبلُغْهم رسالتُه ، ولم يتدينوا به ، فقال : وما جاء بكم إلى هذه الأرض التى لم يطأها قدمٌ لأجنبيٍّ من بنى آدمَ قبلكم ؟ فأخبرُوه حادثةَ الريح الشّديدة التى ساقتْهم إلى تلك الأرض كَرْها ، فقال : لا خوفَ عليكم فأنتم آمِنُون ، وأطعمهم لحم طيرٍ وسمكٍ ووحشٍ مما يأكلُ القوم .

ثم سارَ بهمْ في مناحي أَرضه يتفرجون ، فرأَوْا فيما رأَوا صيادًا أخرَجتْ شبكتُه من البحر قمقما نحاسيًا ، ولما فَضّ غطاءه خرج منهُ دُخان كثيف أزرق ، جعل يمتد ويعلو حتى كاد يبلغ عنان السماء ، وسُمِع صوتٌ من خلاله يقول : التوبة ، التوبة ، يانبيّ الله ، ثم تحول الدخان إلى شخصٍ عظيم الخلقة ، بشع المنظر ، لايراه أحدٌ حتى يذوبَ رعباً ثم اختفى ، ففزعَ منه أصحابُ الفلك ولكن الصيادَ لم يحفل به وكأَنه لم يجده شيئاً ، فسألوا رئيس القوم عن هذا فقال :

كان سليمانُ بن داود عليهما السلام إذا عَمل الجنُّ شيئاً وغضبَ عليهم حبسهم في قماقم نحاسية وختم غِطاءها بخاتمه وألقاها في البحر ، وكثيراً ما يخرج الصيادون بشباكهم قماقم منها ، فإذا كسروا قمقما أو أزالوا عنه الغطاء خرج منه الجنّي المحبوسُ على نحو ما رأيتم ، وهو يَعتقدُ أن سليمان لايزالُ حيًّا ، فيعلن توبته كما سمعتم .

فقال الخليفة عبد الملك وعلى وجههِ سِماتُ رغبة مُلحّة : بِوُدّى لو رأيت شيئاً من هذه القماقم ! فقال طالبُ بن سهل : ذلك على أمير المؤمنين هيّن ، ومن اليسير أن يأتيك كثير منها وأنت في مَقرِّ ملكك لا تَريم ، فأرسل إلى أخيك عبد العزيز بن مروان أن يكتب إلى موسى بن نصير بإحضار ما تطلبُ من تلك البقعة التي فيها القماقم ، فهى متصلةٌ بالأرض التي جعلته واليا عليها ، فاستراح الخليفة لهذا الرأى وقال : ليس لهذا الأمر غيرُك ياطالب ، فلتكنْ أنت رسولى إلى موسى بن نصير ولك ما تشاء من

المالِ ، وسأخلفكَ في أهلِكَ حتى تعود سالماً بفضل الله ، فقال طالب : ليس أحبَّ إلى نفسى من طاعة أمير المؤمنين .

أَمَدَّ الخليفةُ طالب بن سهل بالمال الكثير وصَالحى الأعوانِ والرجال وناوله كتابين أما أَحَدُهما فإلى والى مصرَ يوصيهِ بطالب بن سهل خَيراً ، وأما الآخر فإلى مُوسى بن نُصير يأمره أن يُحضر بعضاً من القماقم مهما يبذلْ في سبيلها من المال والجهد ، ويُعلمُ أنه لنْ يقبل في عدم إحضاره مَعاذير مهما يكنْ من أمرها .

ولما قرأ موسى كتاب أمير المؤمنين قال : سمعا وطاعة ، وجمع ذوى الرأى والمشورة من رجال ولايته ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فأجمعوا رأيهم على أنّ هذا الأمرَ لا يقومُ به إلا الشيخ عبد الصمد القدّوس ، لخبرته بالقفار والبحار ، ومعرفته سكان الأقاليم والأقطار ، وكثرة ما قاسى من الأسفار ، فبعثَ مُوسَى في طلبه ، فجاءه من فوره ، وكان شيخاً كبيراً حنكته التجاربُ وصَقلتْه الأيام .

فلما جاءه قال له : إن خليفتنا أمرنا أن نبعثَ إليه بعضا من قماقم سُليمانَ بن داود عليهما السلام ، ولا أعرفُ مكانها ، وقد قيلَ لى : إنك أعلمُ الناس بالأرض ومسالكها والأقطار وما فيها ، وإنك رجلٌ مجربٌ حكيم ، فهل لك رغبةٌ في قضاء ما طلب منا أمير المؤمنين ؟

فقال الشيخ : ولكنّ الطريق وعرة محفوفةٌ بالمخاوف ، والشقةُ بعيدة وأهوالها ثقيلة ، وأنت رجل مجاهد فاتح ، وأعداؤك من الأمم

الأخرى على مقربة من بلادك وهم ينتهزون الفرص لغزوها .

فقال مُوسى : كم من الزمن تحتاجُ هذه الرحلة ؟ فقال : سنتين وشهراً ذهابا ومثلها جيئة ، وإذا كان لامفرّ من الرحيل فعليك أن تستخلف فى البلاد من يُغنى غناءك ويكون قذًى فى عين أعدائك .

فقال : سأستخلفُ ابنى هارون فيها ، وهو رجلٌ كما تعرفُ شديدُ البأس جليل القدر واسع الحيلة ذو عزمٍ وفطانة .

فقال : يسّرَ اللهُ لنا الأمر ، ووقى البلادَ فى غيبتنا كل مكروهٍ وضُر وربما ابثنا فيها من الزمن أقل مما سمعتَ وعرفْت ، ولنعتمدْ على الله مُخلصين له أعمالَنا ، راجينَ منه أن يُهيئ لنا من أمرنا كل يُسْرٍ وخَير .

سار مُوسى بن نصير ومعه حامية من جُندِهِ ومن رغب فى الرحيل معه من صَحبِهِ ، والشيخُ عبد الصمدُ يجتاز بهم ربواتٍ وسهولا ، وغابات موحشةٍ ترتعدُ منها الفرائص رُعبا ، حتى كانوا أمام قصر مُنيف واسع الرقعة ، يحسبه القادِمُ إليه سورا عالياً من الحجرات يحوى بداخله بلداً ، وبابه من السعة والعظمة بحيث يتلاءم وهذه البِنْية الضخْمة الممتدة ، يَصعد إليه الداخلُ فى سُلمٍ من الرخام الأبيض المصْقول المُصَفّى ، وكانَ مفتوحا على مصراعَيْه ، وقد وضِعتْ بعاليه لوحةٌ رخاميةٌ كبيرة بها كتابةٌ باللغة اليونانية وكان الشيخ عبد الصمد يحذقها ويعرفها ، فأمره موسى أن يقرأ ما فيها فقرأ .

هؤلاء قومٌ يندُبُ مصيرهم مُلكا كبيراً نزع من أيديهم ، ونعيما

واسعاً فارقوهُ رغمَ أنوفهم ، فلا ترى كلاً منهم إلا حبيس قبر وضجيعَ حجر ، فتأثر موسى وقال : لا إله إلا الله الحى القيوم بديع السموات والأرض ، ودخلوا إلى ردهةٍ فسيحةٍ فرشتْ أرضها بالرخام الملوّن ، وحُلى سقفها بنقوش الذهب والفضة ، وعلى جانبيها صُور وتماثيل بديعة الصنع رائعة الجمال ، تنتهى إلى باب آخَر به لوحة مكتوبٌ فيها :

كم من معشرٍ أقبلت عليهم الدنيا فتمتعوا بها قليلا أو كثيرا ، ثم كان مَصيرُهم إلى الفناء .

فبكى موسى متأثراً وقال : لا إله إلا الله ، مَا خُلِقنا عَبثاً ، وإنما خُلِقنا لأمر عظيم ، وإنَّا لله وإنّا إليه راجعُون ، ثم نفذوا من هذا الباب إلى فناء واسع تطل عليه أبنية القصر الذى لم يروا فيه أحدا ولم يسمعوا هَمْسا ، ووجدُوا فى وسط الفناء قبةً ضخْمةً عالية ، ومن حَولها قبورٌ يُجاوزُ عددها أربَعَمائة ، وهى غارقةٌ فى سكون عَميقٍ يبعثُ فى النّفس الرهبة وكان من بينها قبرٌ كبير من الرخام كتب عَليه :

ما أكثرَ ما شهدت من كائنات ! وما أكثر ما لَهوتُ ولعبْت واستمتعت بالغانيات ! وما أكثر ما أَمرتُ ونهيتُ وبنيت من حُصون مانِعات ! غرتْنى الدنيا وزينتها فغفلتُ عما هُو آت ، فحاسب أَيها الفتى نفسك قبل أَن تَشرب كأس الممات ، فعما قليل يُهال عليك الثّرىَ وأَنت فى حسرة على ما ضاع من عمرك وفات .

فبكى موسى ومن معه ، ثم دنَوا من العتبة فوجدوا لها ثمانية أبواب

مصاريعها من خشب الصندل المرصع بالذهب والفضة والجواهر الكريمة وقد كتب على باب منها : طالما جمعتُ المال مغتبِطا ، وضننت به على ذوى الحاجة من الأقربين والأبعدين ، وقد خلّفته من بعدى ، لا تكرّما ولا تفضُّلا منى ، ولكنه حكم القضاء الجارى ، وما دفع عنى الموت كثرة المال ولا قوة الجنود والرجال ، وسأُسألُ عن هذا المالِ يوم الحساب ، فاحذر أن تخدعك الدنيا وتلهيك عن الآخرة .

ودخلوا من هذا الباب على قبر مُستطيل كبير عليه لوحٌ من الحديد المموه بالصينى وقد كتب عليه :

باسم الله الأحد الصمد الذى لم يَلِدْ ولم يُولَد ولم يكن له كفوًا أحد . أما بعد فاعتَبِر يا من زرت هذا المكان، بما تراه من طوارق الحدثان ، واعلمْ بأن الدنيا بالبلاء محفوفة ، وبالغدر معروفة ، ترمى أهلها بسهامها وتفنيهم بحمامها، وما هى إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فقد ملكت فيها أربعة آلاف حصان ، وتزوجت ألف بنت من بنات الملوك الأقمار ، ورزقت بألف ولدٍ كأنهم الأسود شجاعة وقوة وعمرت فى الدنيا ألف سنة ، وجمعت من الأموال ما إن مفاتيح خزائنه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، ولبثنا فى هذا القصر مطمئنين منعمين ، حتى أخذتنا صيحة الحق ، فكان يموت منا اثنان كل يوم ، فلما رأيت الفناء قد دبّ دبيبه فينا ، كتبتُ هذا ليكون موعظة لمن يزورنا ، وقد جمعت جنودى وسألتهم أن يدفعوا عنى الموت بأسلحتهم فما استطاعوا وما فعلوا ،

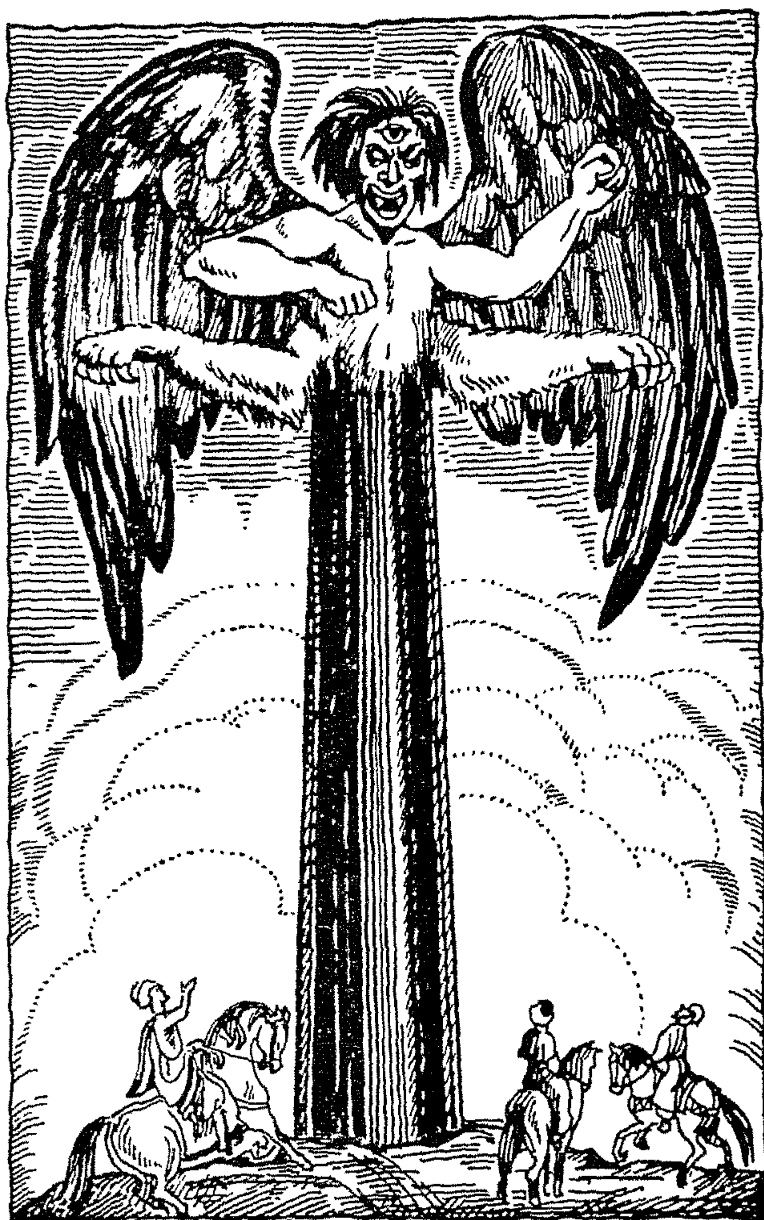
فسألتهم أن ينقذونى من الموت بما أملكه من الأموال ، أو يؤجلوا آخرتى يوما واحدا فما أغنى عنى ما أملكه شيئا ، فامتثلت لحكم القضاء . وسكنت هذا الضريح ، وأنا كُوشُ بن شَداد بن عادٍ الأكبر ، بعد أَنْ حكمت البلاد ، وقهرت بجيوشى العباد ، فاحرص على أن تنفق عُمرك فى صالح الأعمال ، فهى التى تؤنسك فى وحدتك ، وتنجيك يوم مَسألتك .

فبكى موسى ومن معه متأثرين ، وأخذوا يطوفون فى نواحى القصر ، فعثروا على سفرة ذات أربع قوائم مكتوب عليها : أكل على هذه السفرة ألف ملك أعور وألف ملك سليم العينين ، وقد سكنوا جميعهم القبور .

وقد أمر موسى بكتابة كل هذا وخرج من القصر هو وجماعته ولم يأخذوا معهم إلا تلك السفرة ، وأخذوا يسيرون حيث يدلهم الشيخ عبد الصمد ، حتى أتوا رابية عالية وفوقها فارس من نحاس أصْفر ، لرمحه سنان عريض براق كتب عليه :

أيها السائر ، إن كنت لا تعرف الطريق إلى مدينة النحاس فافرك كف هذا الفارس فإنه يدور ثم يقف ، فإذا ما وقف فاسلك الطريق الذى يولى وجههُ شطرها إلى مدينة النحاس وأنت آمِن .

ففرك موسى كفه ، ودار الفارس ثم وقف ، فسلكوا الطريق التى ولّى وجْهه شطرها ، وما زالوا سائرين حتى وجدوا عموداً من حجر أسود ، به شخص غاص فى الأرض إلى إبطيه ، وله جناحان عظيمان ، وأيد أربعة ، اثنتان كأيدى بنى آدم ، واثنتان كأيدى الأسد ، وفى رأسه



شعر كأذناب الخيل ، وعيناه تتوقدان كاللهب ، وله عينٌ ثالثةٌ فى جبهته كالجمْرةِ ، وهو أسودُ اللون ، وسمعوه ينادى :

سُبحان ربى العظيم الذى حكم علىَّ بهذا العذاب الأليم إلى يوم الدين ، فلما سمعوه فروا مبعدين هَاربين خائفين .

وسأل موسى الشيخ عبد الصمد عنه فقال : لا أَعرف عنه شيئا ، فأَمره أن يذْهبَ إليه ويكشف لهم عن سِرِّه فقال :

إذا كان قد أزعجنا أجمعين فكيف أَجْرؤ وحدى أن أذهب إليه وأنا أَجهلُ أَمره ؟ .

فقال موسى : لا أرى سبباً للخوف ، فهو مكفوفٌ عنا بما هو فيه ، ولنذهب جميعاً إليه مَعك ، فذهبوا ودنا منه الشيخ عبد الصمد سائلا :

أَيها الشخص ، من أنت ؟ وما شأنك ؟ .

فقال : إنى عفريتٌ من الجنّ يسمى داهش بن الأعمش ، محبوسٌ فى مكانى هذا على نحو ما ترى بقدرة الله تعالى ، وإنّ لى حديثا عجباً : وذلك أنه كان لولد من أَولاد إبليس صنم من العقيق وُكل إلىَّ أمره ، وكان عاكفاً على عبادة هذا الصنم مَلِكٌ من مُلوك البحر عظم خطره وكثُر جنده ، وفى طاعته أَلفُ ألفٍ من الجان ، وكان هؤلاء يطيعوننى ويأْتمرون بأَمرى ، وقد عصوا سليمان بن داود عليهما السلام وتمرّدوا ، وكنت أُدخل جوف الصنم فآمرهم وأنهاهم ، وكان لهذا الملك بنت فاتنة الجمال لاتنى عن السجود لهذا الصنم وعبادته فذكرت أمرها إلى سليمان

عليه السلام ، فأرسل إلى أبيها أن يزوجه منها ، وأن يكسر الصنم الذى يعبدونه من دون الله ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن سليمان نبى الله ، وقال : فإنْ فعلتم كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتُم جئتكم بجنودٍ لا قِبَل لكم بها ولا طاقة لكم بلقائها .

فاستكبر الملك وجمعَ وزراءه وعرض عليهم رسالة سليمان وقال : انظروا بماذا تشيرون ؟ فقالوا : لن يستطيع سُليمان أن يصيبك بمكروه ، فأنت فى وسط البحر الأعظم ومعك الألوف من مردة الجان ، ومَعونة الصنم الذى تعبده ، ومع هذا فمن المستحسن أن تستشير الصنم فى أمر سليمان هذا ، ولتنظر ماذا يقول ، فقرّب الملك إلى صنمه القرابين وذهب إليه يستشيره ، فقال :

يا ربى إن سليمان يروم كَسْرَكَ ، والانصراف عن عبادتك ، وينذرنى إن لم أستجب له هَلاكا ونكالا ، فمرنى بما تشاء ، قال العفريت : وكنت لجهلى وقلة مبالاتى بسليمان وجنوده قد سبقت الملك إلى الصنم ودخلت جوفه ، فلما سأله الملك أجبته : لا يهمنى أمر سليمان فى قليل أو كثير ، وإن يُردْ حربى فسأصبُّ عليه الويل والثبور .

فاشتد عزمُ الملك وأصرّ على أن يقاتل سليمان عليه السلام . وآذى رسول سليمان وضربه ، وأرجعه إليه يحمل تهديده ووعيده .

غضب سليمان غضبة كريهة ، وامتطى البساط هو وجنوده من الجن

والإنس والوحش والطير والهوامّ ونزل بأرض الملك فى جزيرته ، وأرسل إليه يقول :

لقد أتيت إليك ، فراجعْ عقلك ، وتدبّر مصيرك ، فإنْ آمنت بالله ونَبيِّهُ ، وكسرْتَ صَنَمك ، وزوجتنى ابنتك لأنقذَها بالإيمان باللهِ من عذاب الله — سلِمْتَ وسلِمَتْ جُنودُك ، وإلا فليست حصونُك بمانعتك منِّى ، فقال لرسول سليمان : ارجع إلى مَن أرسلك وبلّغه ألّا سبيل إلى ما يَطْلب ، وإنى خارجٌ إليه فمُلاقيه . وجمعَ الملك جُموعه ونَفَر إليه فى ألوفٍ من الجنّ ومردَة الشياطين .

وأما سليمانُ فإنه بعدَ أنْ بلَّغه رسُولُه إجابة الملك نظّم جنوده ، وقسمَ الوحوش قسميْن عن يمينٍ وشِمال ، وأمرها أن تفترس خيولَهم ومن تلقاهُ منهم ، وأمَرَ الطيرَ أن تفقأَ عيونَهم بمناقيرها ، وتضربَ وجُوهَهم بأجنحتها ، وجلس هو على سرير من المرمر مرصّع بالذهب والجوهر ، وجعل وزيرَه آصفَ بنَ برَخيا عن يمينه ووزيرَه الدمْرياط عن يَساره . وحشَدَ الجيوش أمامه .

قال العفريت : وزحف علَينا زحفةً قامت على أثرها حربٌ طاحنة تنشقُ لها المرائر وبرز الدمْرياط فانفردتُ بقتاله حتى أعيانى وأعييتُه ثم ضعُفتُ أمامه ، وشَرِبَ ملكُنا كأس الهزيمة وكنَّا لسليمان غنيمة ، ولم أستطع البقاء فى ميدان القتال فطرتُ بين يدى الدمرياط ولكنّه تبعنى حتى أدركنى فأسَرنى وحبَسنى فى هذا العمود كما ترى .

(٢)

ولما انتهى الجنىُّ من قصةِ حبسهِ فى العمودِ ، سألهُ الأمير مُوسى وجماعتُه ، عن الطَّريقِ إلى مدينةِ النحاسِ ، فأشارَ إليها ، فسلكوها حتى نزلوا أمامَ سورِ المدينة ، فوجدوهُ متيناً ضخماً ، كأنهُ حديدٌ مَصبوبٌ ، أو جبلٌ ممدود ، وليسَ فيه أثرٌ لبابٍ يوصلُ إلى المدينة ، فقال الأميرُ موسى لطالب بن سهلٍ وزيرهِ : لا بُدّ أنْ ندخُل مدينةَ النحاس ، فعليكَ أن تحتال لدخولها ، وتهيّئ سبيلا إلى الاغتمارِ فيها ، فقال طالب : يسّرَ الله أمر الأمير ، وشرح صدرَه ، أمهلنى يومين أو ثلاثة ، أنظرُ فيها وجهَ الحيلة ، وستجدها إن شاءَ اللهُ لديك حاضرة ، فلم يُطق الأميرُ موسى أن يصبرَ هذه المدة ، وأمر غُلاماً له ، معروفاً بالشجاعةِ والقوة ، أن يركب جمله ، ويطوفَ حولَ سورِ المدينة ، لعلّه يجدُ آثار بابٍ لها ، أو يعثُر على قصر بجوارها ، يكونُ له صلةٌ بها

أرخى الغلامُ الزمامَ لجمله ، وجعل يطوف حول السورِ يومين وليلتين ، حتى أشرف على القوم ثالث يوم ، وقال : أعزّ الله الأمير ، أسهلُ مكانٍ تستطيعُ الوصول منه إلى هذه المدينة ، أو معرفةَ شىءٍ عنها ، ذلك المكانُ الذى أنتم فيه الآن .

وكانت المدينة جاثمةً فى وادٍ ، أمامَ جبلٍ مُمتدٍ فى السماء ، فصعد فيه الأمير ، وصحبه طالبُ بن سهل ، والشيخُ عبد الصمد ، محاولين الاطلاعَ

عليها ، منْ موضعٍ بالجبل قريب منها ، مشرفٍ عليها ، فرأوا مدينةً غارقةً في عظمة صامتة ، بادية في قصورها الفخمةِ العالية ، وقبابها المبعثرةِ الزاهية ، وحدائقها الزاهرة ، وأنهارها الجارية ، وأشجارها العاليةِ الناضرة ، وأزهارها اليانعة ، وثمارها الشهية الناضجة ، ولكنها خاليةٌ من السكانِ والحركة ، فلا تسمعُ فيها إلا أصواتَ الطيورِ المتجاوبةِ ، كأنها تندبُ أهليها ، وتنعى من بناها ، فدهش الأمير موسى لهذه الحالِ العجيبة ، وأسِفَ على خُلوِّ المدينة من الإنسان ، وجعلَ يتنقلُ ببصره فيها هنا وهناك ويقول :

سبحانَ الحيِّ القيوم ، بديع السموات والأرض ، خالق الخلقِ ، مدبر الأمرِ ، له الملكُ وإليه المصير ، ثم وقع بصره على سبعةِ ألواحٍ من الرخام الأبيضِ على كلٍّ منها كتابةٌ واضحة ، فأمر الشيخَ عبد الصمد أن يقرأها ، فوجدها سطرتْ بآياتٍ بينات ، من عظةٍ وذكرى لأولى الألباب ، ووجدَ اللوحَ الأولَ مكتوباً فيه :

« يا ابن آدم ، ما أعظم غَفْلَتَك عما أنت إليه صائر ! لقدْ ألهاكَ التكاثر ، حتَّى زرتَ المقابر ، أما علمتَ أن المنيةَ جائعةٌ لك تترصد ، وأنها مدركتك ولو كنتَ في بُرجٍ مشيد ، فانظر ما قدمتْ يداك قبلَ أن تطويكَ قبرُكَ ومثواك .

فوجلَ قلبُ الأمير موسى ، لما سمع من تلك الموعظةِ ، وقال : والله

إن المرءَ لا ينفعه إلا زهده فى الدنيا ، وعدمُ الاغترار بها ، وأمر أن تكتب هذه الموعظةُ فى قرطاسٍ يحفظ عنده .

وكان قد كتب على اللوح الثانى :

يا ابنَ آدم ، ما غرَّكَ بربكَ الكريمِ الذى خلقكَ فسواكَ ، وما ألهاكَ عنْ أَجَلٍ يدنُو منكَ ولا ينساكَ ؟ ! أَما علمتَ أن الحياةَ الدنيا لهوٌ ولعبٌ وما لأحدٍ فيها منْ قرار ؟ فاذكرْ من عمَروا الأرضَ وملكُوها ، ثم دعاهم داعى الفناء فلبُّوه ، وبلغُوا من الأرضِ منزِل وحدتهم ، ومحطَّ حُفرتهم ، وما أغنَى عنهم أموالُهم ، وهلكَ عنهمْ سُلطانُهم .

فبكى الأمير موسى بكاء مرًّا وأمر أنْ يكتب هذا له أيضاً ، وقال والله ما خُلق الإنسان إلا لأمرٍ عظيم قد يكونُ الناس عنه فى غفلةٍ .

أما اللوحُ الثالث فقد كان مكتوباً فيه :

يا ابن آدم ، غرَّتك الدنيا فاشتريتها بآخرتك ، وخدعكَ الهوى فأنساكَ ذكرَ ربِّك ، ألم يجعلْ لك عينين ، ولساناً وشفتين ؟ فكيف تنكر الالٰهَ ، وتكفرُ بنعمائه ، وهو المنعمُ الوهاب ، وإليه المرجع والمآب ؟ ! !

فزاد بكاء الأميرِ ، وعظمتْ مخافته ، وأمر أن يكتب ويُحفظ .

وقرأ الشيخ عبد الصمد ما باللوح الرابع فإذا هو :

يا بن آدم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ، وكثيراً ما أمهلك

وأملَى لك ، وليس بعد الإمهال إلا النكال ، فخذْ من صحتك لمرضك ، ومن غناكَ لفقرك ، ومن حياتك لموتك ، واحذر أن تركن إلى الدنيا فليس لها ثبوت ، وماهى إلا كبيت العنكبوت .

فعظمت خشيةُ الأمير واشتدّ وجلُه ، وأمر بكتابةِ هذا وحفظه ، ثم نزل هوَ وصاحباه إلى مُعسكرهم ، وهناك جمع الخواصّ من رجاله ، وجعلوا يبحثون عن حيلةٍ تمكنهم من دخول المدينة ، فقال الأمير لهم : إنّ للعقل نورًا يثقبُ أحلاك ظلمة ، فاهتدوا به للعثور على حيلة ، ندخلُ بها تلك المدينة ، لنرى عجائبها وغرائبها ، ولعلّنا نجدُ فيها ما نتقربُ به إلى أمير المؤمنين ، فقال طالبُ بنُ سهلٍ وزيره :

أدامَ الله نعمة الأمير ، نصنع سُلمًا نصعدُ فيه إلى ذِروَةِ السور ، وعسى أن نجد بابًا للمدينة من داخله ، فقال الأميرُ : نعمَ الرأيُ ، وقد خطرَ من قبلُ ببالى وأعجبنى ، ثم أمرَ النجارين والحدادين أن يَصنعوا سُلمًا متينًا فى أقصرِ مُدةٍ ، وبعدَ شهرٍ أتموا صُنعهُ ، وأسندوه إلى السور ، فأصبح فى استطاعةِ أىّ إنسانٍ أن يصعدَ فيه إلى قمةِ السُّور ، ويَمشىَ فوقه حيثُ يشاء .

فرح الأمير بذلك ، وقال لمن معه منْ منكم يحبّ أن ينزل المدينة ؟ ويحتال فى فتح بابٍ نلجهُ إليها ، لنعرف سرّها ، وغريبَ شأنها ؟ فتقدم أحدُهم وأخذَ على عاتقهِ ، أن يكون فتحُ باب المدينةِ على يده ، وما لبثَ أن وقفَ على قمةِ السورِ حتّى رأوْهُ يحدقُ ببصرهِ إلى المدينة ، ويُصفقُ بكفيهِ قائلاً :

أنت مليح ، ثم ألقَى بنفسه داخلَ السّور ، فأيقنَ الأميرُ أنه نزل إلى أرضِ المدينة جثةً هامدة ، ولم يتخلف عن هذا اليقينِ منهم أحَد ، وقال الأمير : لئنْ كان هذا مَصيرَ كل رجلٍ يصعَدُ فلا ريْبَ أننا هالـكون ، وسيلتقمُنا الموت واحدا فى إثرِ واحد ، حتى لم يبقَ منا أحد ، ولهذا يحسنُ أن ننجو بأنفسنا ، ونرحلَ عن هذه المدينة ، فلا حاجة لنا بها ، ما دمْنا عاجزينَ عن دخولها ، فقال بعض رجاله فى حماسةٍ بادية :

لعلّ غيره أثبت جنانا ، وأقدر على تحقيق رغبتنا ، فقال : لا بأس أن نجرب غيره فقد يكونُ الفتح على يَده ، وتقدمَ اثنا عشرَ رجُلا، أحدُهمْ بعدَ الآخر ، وكانَ مصيرهم مصيرَ الرجل الأول ، الذى حملقَ وصفّق ونزل ، فتحمسَ الشيخ عبد الصمد وقال :

ليس لهذا الأمر أحد غيرى ، ولا يستوى رابطُ الجأش ومن قلبُه هواء ، ولا يستوى المجربُ وغيرُ المجرّب ، فقال الأمير : ولكنى لا أرضى بصعودِك،لأنكَ دَليلُنا ، وإن متّ هلكنا أجمعين ، فقال الشيخ : لا تخفْ أيها الأمير،فإن ثقتى بنفسى ، واعتمادى على ربى ، كفيلان بتحقيق مأربى ، وحمايتىمن كل خطر، ووافقَهذا القولُ رغبةً فى نفوس الجماعة ، وبخاصةٍ فقد اشتدتْ رغبتُهم فى دخول المدينة ، ليقفوا على مَصير أصحابهم الذينَ هوَوْا إليها .

وقام الشيخ وهوَ يتلو فاتحةَ الـكتاب ، وغيرَها من اياتِ القُرآنِ الـكريم ، حتى كانَ فوق سُورِ المدينة ، وصحبُه شاخصون إليه ، ولما

رأوه قد حدَّق ببصره، وصفَّقَ بيديه. فزعُوا وصاحوا: لا تلقِ بنفسك، لا تلقِ بنفسك، ولكنه ضحكَ فى صوتٍ مرتفع، وجلسَ على السورِ يتلو ما تيسّر من آىِ الذكر الحكيم، ثم قامَ وصاح رافعاً صوته، لا خوف علينا وعليكم، فقد صرف الله كيد الشيطانِ عنى وعنكم، بفضلِ اعتمادِى عليه، وما تلوت من آياتٍ بينات، فقال الأمير: وماذا رأيت يا شيخ عبد الصمد؟ فقال:

رأيتُ عشر جوارٍ، كأنهن الأقمار، يشرنَ إلىَّ بأيديهن أنْ أقبل إلينا، وخُيلَ إلىّ أن تحتى بحراً، وهممتُ بإلقاء نفسى، كما فعلَ أصحابنا السابقون، ولكنى رأيتُ الجوارىَ ميتات، فأحجمتُ عن إلقاء نفسى، وتلوت شيئاً من كتاب الله تعالى، فصرف عنى كيدهنّ وسحرهن، ولا بُدّ أنْ يكون هذا سِحرَ أهلِ المدينة، فعلوه لحمايتها من كل طارق، وليصرفوا عنها كل راغبٍ فى الوصول إليها، وهؤلاء أصحابُنا موتَى.

ثم مشى الشيخُ على السورِ حتى وصلَ إلى برجين من نحاس، لهما بابان من ذهب، ولكن لا قفلَ فيهما، ولا أثرَ عليهما يدلّ على فتحهما، فوقف الشيخُ أمامهما طويلا، مفكراً متأملا، فرأى وسط الباب صورة فارسٍ من نحاس، له كفّ ممدودة، كأنه يشيرُ بها إلى شىء، ورأى كتابةً فقرأها، فإذا هى: افرك المسمارَ الذى فى سرةِ الفارس اثنتى عشرة فركة، يفتح لك باب البرج، ولما فركه الشيخُ انفتحَ الباب، وكان لفتحه أزيزٌ كأنه الرعد، فدخلَ منه الشيخ عبد الصمد — وكان عالماً بجميع

اللغات — إلى دهليز طويل ، يحركُ سكونُه الرعبَ في نفس سالكه ، وينتهي إلى سلمٍ ذي درجاتٍ ممدودات ، فنزل منه إلى مكانٍ به أرائكُ جميلة ، عليها أشخاصٌ موْتَى ، وفوق رءوسهم تروسٌ وسيوفٌ وقِسِيٌّ وسهام ، ووجد به بابَ المدينة ، ومن خلفه عمودٌ حديديٌّ ، ومتاريس خشبية متينة ، وأقفالٌ رقيقة ، وآلات محكمة ، فظنَّ الشيخ أن مفتاح الباب عند هؤلاء الأشخاصِ الموتى ، وكان من بينهم رجلٌ يبدو عليه أنه أكبرهم سنا ، وقد جلسَ على أريكةٍ عالية ، فقال في نفسه : لعل هذا الرجلَ بوابُ المدينة ، ومعه مفتاحُها ، وهؤلاء الآخرونَ أعوانُه ، وتحت إمرتِه وسلطانِه ، فدنا منهُ ورفع ثيابه ، فوجد المفاتيحَ معلقةً في وسطه ، ففرحَ فرحاً عظيما ، وأخذ المفاتيح ، وذهبَ إلى البابِ ففتح أقفاله ، وأزَال المتاريسَ وما خلفه من الآلات ، وجذبَ البابَ إليه جذبةً قوية ، فانفتحَ وأطلَّ الشيخُ على صحبِه ، فكبّرَ وكبروا معه ، وكانَ فرحُهم عظيما ، لنجاةِ الشيخ وسلامتِه ، وفتح بابِ المدينة وهمُّوا بالدخولِ جميعُهم ، ولكنَّ الأميرَ موسى نادَى فيهم :

يا قوم ، لا نأمنُ على أنفسنا إذا دخلنا جميعُنا دفعةً واحدةً ، ولكنْ من الحزمِ أن يدخلَ نصفُنا ، وينتظرَ النصفُ الآخر .

(٣)

ودخل الأمير موسى ومعه نصفُ جماعته، يحملونَ آلاتِ الحرب، فوجدوا أصحابهم ميتين فدفنوهم، ووجدوا البوابين والخدمَ والحجّابَ موتى راقدين؛ على فرش من حرير ثمين، ثم ساروا نحو بنيةٍ ضخمة، عاليةٍ ممتدة، ذات أبواب فسيحةٍ عديدة، فدخلوها فإذا هي سوق المدينة، مفتحة الدكاكين، معلقة الموازين، مصفوفة البضائع، لا ينقصُها إلا حركة البيع والشراء، فهذه سوقُ الخز، جمعتْ كثيراً من ألوانِ الديباجِ المنسوج بالذهب والفضة، وأصحابها موْتى رقودٌ على أنطاع الأديم، يكادون لسلامةِ أجسامهم ينطقون، وهذه سوقُ الجواهر واللؤلؤ واليواقيت. كأنها من البريق الوضاء عيونٌ تنظر إلى أصحابها الموتى من تحتها، وهذه سوق الصيارفةِ الموتى على فرشٍ من الحرير والإبريسم، تموجُ دكاكينُهم بالذهب والفضة، وهذه سوق العطارين تملأ الجوّ بعبير المسكِ والعطر، والند والعنبر، وغيرها من خلاصة الأزهار الذكية، وكأنها تندبُ بأنفاسها تجارَها الرقودَ في غيرِ حياة.

وخرجوا من سوق المدينة، فرأوا بالقرب منها قصراً مُنيفاً، يعتزْ بفخامتهِ وضخامتِه، فذهبوا إليه، فوجدوا له باباً زُينَ بأشكالٍ زخرفية من المعدنِ اللامع. ولما دخلوه رأوا في دهاليزِه أعلاماً منشورة، وسيوفاً مجردة، وقسيًّا مُوترة، وتُروسا ربطتْ إلى سلاسل من ذهب وفضة،

وخوذاً أحكِمَ طلاؤها بالذهب الأحمر، كما وجدوا فى تلك الدهاليز أرائك من العاج المكسوِّ بالذهب والإبريسم، وعليها رجالٌ يَحسبُهم الناظر نِياماً ولكنّهم أمواتٌ غير أحياء.

وقف الأميرُ موسى دَهِشاً من عجيبِ ما رأى، وبديع ما نظر، بهذا القصر الذى أُحكِمَ بناؤُه، وأُبدِعَ تنسيقُه، وأحسن نقشه. وزادَه عجباً أن وجَد هذه العبارةَ قد جُمِّلتْ بها صفحات جدرانه: «أنظروا واعتبرُوا قبلَ أن ترحلوا، وما تقدمُوا لأنفسكُم من خيرٍ تجدوه، وكل امرئ بما كسَبَ رَهِين، والمرءُ مجزِىٌّ بعمله يوم لا ينفع مالٌ ولا بَنُون، إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم، ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون، وكل من عليها فانٍ ولا يَبقَى إلا وجهُ ربك ذى الجلال والإكرام».

فزادت الأميرَ هذه العبارةُ إيماناً وخشية، وأمر أن تُنقَلَ فى قرطاسٍ له، ثم وجدوا فى هذا القصر أربعة مجالسَ، فسيحةَ الجنبات، ذاتَ قوائمَ مَرْفوعةٍ عالية، وأوْضاعٍ متقابلةٍ، زُينتْ بنقوشٍ ذهبية وفضية، يتوسطُها فسقيةٌ من المرمَر، ضربتْ عليها قبةٌ من الديباج، ومن خلفِها فساقٍ منْ رخامٍ مختلفٍ ألوانُه، ومن تحتها أنهارٌ أربعة، تجرى إلى بحيرة واسعة، يشِف الماءُ عنْ صفاء رخامها، فقال موسى:

هيّا بنا ندخل تلك المجالسَ، فوجدوا المجلسَ الأول مملوءاً فضةً وذهباً، ولآلئَ وجواهر، وغيرَها منْ نفيس المعادن، وصناديق مملوءة من

حرير غالٍ مُختلفٍ ألوانه . ووجدُوا فى المجلس الثانى خزانةً انفَرجَ بابها عنْ كثيرٍ من أنواع السلاح وأدواتِ القتال: من خُوَذٍ مذهبة ، ودروع سابغاتٍ داودِيّة ، وسيوفٍ هنديّة ، ورماح خطيّة ، ودبابيسَ خُوار زميّة إلى غير ذلك من أدوات الجهادِ والكفاح ، والحرب والقتال . وشاهدوا فى المجلس الثالث خزائن ذات أقفالٍ مغلقةٍ ، ومن فوقها ستائرُ مطرزة ، ففتحوا خزانةً منها ، فرأوها مملوءة بالسلاح النادر وجوده ، لفرط الجمال فى زخرفته ونقشه . ورأوا فى خزائن المجلس الرابع كثيراً منْ أدواتِ الطعام والشراب ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وصافى البلّور ، وخالص العقيق ، من قدورٍ وصحافٍ وأكوابٍ وغيرها .

وجَعلوا يحملون من كل أولئكَ ما أعجبَهم واستطاعوا حمله ، ثم خرجوا من تلك المجالس إلى بابٍ مصنوعٍ من السَّاجِ المطعّم بالعاج والأبنوس والذهب البراقِ اللامع ؟ أُسْدِلتْ عليهِ ستائرُ من حريرٍ زُينَ بأنواعٍ جميلةٍ من النقش والتطريز ، وبه أقفالٌ من فضة ، تفتحُ بالحيلة من غيرِ مفاتيح ، فتقدم إليها الشيخُ عبد الصمد ، وفتحها بحيلته وبراعته ، ودخلَ القومُ منهُ إلى دهليزٍ رخامِيّ جميل ، على جوانبِهِ براقِعُ ذاتُ صورٍ بديعة ، من ذهبٍ وفضة ، تحكى صنوفاً من الوحشِ والطير ، وأعينُها من الدرّ والياقوت ، تستميل إليها منْ رآها ، وتُلقِى فى نفسِه العجبَ والدهشة ، ثم ساروا فيه حتى انتهَوْا إلى قاعةٍ أرضُها من رخامٍ صافٍ مصقول ، مُزخرفٍ بالجواهر ، يحسبه الناظر إليه لجة ، ويخشَى أن تزلقَ فيه قدمه ، إذا مشى



فوقه ، فأمر الأمير موسى أن تفرش تلك القاعة، حتى يمكنهم أن يمشُوا فيها ، ووجدُوا فى تلك القاعةِ الواسعة ، قبةً عظيمة ، فسيحة النواحى ، بنيت بحجارةٍ مطليةٍ بالذهب الأحمر ، وفاقت بحُسنها فى نظر القوم جميعَ ما شاهدُوا ، وفى وسط تلك القبة قبةٌ كبيرة أيضاً ، وهي من المرمر ، وفى مُحيطها شبابيك منقوشة ، رصِّعَتْ بقضبانٍ من زمُرد ، تُعجِزُ نفقاتُها قدرةَ الملوك ، وفيها خيمةٌ من الديباج ، نصبت على أعمدة من ذهبٍ أحمر ، وفيها طيورٌ أرجلُها من زمردٍ أخضر ، وتحت كلِّ طير شبكةٌ من لؤلؤ رطبٍ طرىّ ، تُجلّلُ فسقيةً وُضِعَ فوقها سريرٌ مرصعٌ بالدر والجوهر والياقوت ، وعلى ذلك السرير جاريةٌ ، كأنها الشمس وضاءةً وحُسناً ، عليها ثيابٌ من لؤلؤٍ رطب طرىّ ، وعلى رأسها تاجٌ من ذهبٍ أحمر ، وعصابةٌ من الجوهر ، وفى جيدها عقدٌ برّاقُ اللآلئ ، وعلى جبينَيْها جوهرتان لهما نورٌ ساطع ، كأنه نور الشمس ، وكان يخيلُ إلى القوم أن الجارية تنظر إليهم يميناً وشمالاً ، وكادوا يستيقنون أنها حيةٌ ؛ لنظراتها ، وحمرة خديْها ؟ وسواد شعرها ، ولهذا قال لها الأميرُ موسى :

السلام عليك أيتُها الجارية ، ولكن طالب بنَ سهلٍ قال له : أصلح اللهُ شأن الأميرِ وعافاه ، هذه جاريةٌ ميتة ، فلا تردّ تحية ، ولقد أُحكِمَ تدبير نظراتها ، وذلك بأنْ نُزِعتْ عيناها بعد موتِها ، ثم أُعيدتا بعد أن وُضِعَ تحتهما قليلٌ من الزئبق ، فهما تختلجان وتتحركان ، ومن أجل ذلك يخيل إلى الناظر إليها أنها حية ، وليس فيها شيء من الحياة ، فقال الأميرُ موسى:



سبحان من قهر عباده بالموت .

وكان لسرير الجارية دَرَجٌ ، عليها عبدان ، أحدهما أبيضُ اللون ، والآخرُ أسودُه ، وبيد أحدِهما آلةٌ فولاذية ، وبيد الآخر سيفٌ مرصّعٌ بالجوهر ، يخطفُ الأبصارَ بريقهُ ، وبينهما لوحٌ من ذهب كتبَ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدُ لله الذي خلق الإنسان ، وعلمهُ البيان وجعل له السمعَ والأبصار والأفئدة ، أحاط بكلّ شيءٍ علما ، وهو القاهر فوق عبادِه لا يُعجزِه شيءٌ في السموات ولا في الأرض ، وهو على كل شيءٍ قدير ، يُدبّرُ الأمر يُفصّلُ الآيات لعلهم بلقاء ربهم يوقنون ، يا ابن آدم ، ما أشدّ غفلتك عن حلول أجلك ؟ أين الذين كانوا من لهو الدنيا ونعيمها في غَمْرة ؟ أين من كانوا يقولون : مَنْ أشدُّ منَّا قوّة ؟ لقد استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، واتخذوا من التراب أكفاناً ومن الرّفات جيراناً ، وظعنوا بأعمالهم من الحياة الفانية ؟ إلى الحياة الدائمة الباقية ، فخذوا من حياتكم لماتكم ، واستعدوا للحساب ، يوم لا يغني المرء فيه ماله وما كسب ، ولا يجزي والدٌ عن ولد ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً . يا هذا ، إن كنت لا تعرفني ، فأنا أعرفك باسمي ونسبي ؛ أنا نرمزان بنتُ عمالقة الملوك ، ملكتُ ما لم يملكهُ أحد ، وعدلت في القضية وأنصفتُ بين الرعية ، وأعطيتُ ووهبت ، وواسيتُ وأعنْت ، وعشت طويلا في سرورٍ وعيشٍ رغيد ، وأعتقت الجواريَ والعبيد ، حتى نزل بساحتي طارقُ المنايا وحلت بين يديّ الرزايا ؛ وذلك أنه قد تواترت علينا

سبعُ سنين دأبا ، لم ينزل علينا فيها من السماء ماء ، ولا أنبتت الأرض نباتا فأكلنا ما كان عندنا من القوت ، ثم عطفنا على المواشى والدواب فأكلناها حتى لم يبق شىء منها ، فبعثت بالمال مع الثقات من الرجال ، وطافوا به الأقطار فى طلب القوت فلم يَجِدُوا ، ثم عادوا إلينا بالمال بعد طول الغيبة فأظهرنا أموالنا وذخائرنا على نحو ما ترى ، وأغلقنا مدينتنا ، وأسلمنا إلى الله وجهنا ، وفوضنا إليه أمرنا ، فمتْنا جميعاً كما ترانا ، تاركين ما عمرنا وما ادّخرنا ، وهذا هو الخبر ، وما بعد العين إلا الأثر ، فاعتبروا يا أُولى الأبصار ، واذكروا هادِمَ اللذات ، ومفرِّقَ الجماعات ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له لعلكم تفلحون . اعلم أيها الواصلُ إلى هذا المكان ، ومن رآنا على هذه الحال ، أنهُ لا ينبغى لامرئٍ أن يغترّ بالدنيا وزينتها ، فإنها خوّانة غدّارة ، لا تعقبُ إلاّ الحسرة والندامة ، فمن سهل الله له دخول مدينتنا فليأْخذ من المال ما يقدرُ على حمله ، ولا يمسُّ من فوق جسدى شيئاً ، فإنه ستر لعورتى ، وليتقِ الله ولا يسلبْ منه شيئاً ، وإلاّ أهلك نفسَه ، وقد جعلتُ ذلك نصيحةً منى إليه ، وأمانةً بين يديه ، وَالسلام على من اتبع الهدى .

فأثرت هذه العظات فى نفس الأمير موسى حتى أبكته وأمر أن تكتب له ، وأن يأخذ صحبُه ما يشاءون من الأموال والتحف والجوهر ، فقال طالب بن سهل :

لا ينبغى أنْ نترك ما على هذه الجارية ، فهوَ شىء ثمين لا نظير له

وأعظم هدية نتقربُ بها إلى أمير المؤمنين .

فقال الأميرُ : ألم تقرأ ما أوصتْ به الجارية ؟ ! لقد جعلته أمانةً ، وَما نحن بأَهل غدرٍ وخيانة .

فقال طالبٌ : وهل نترك ما عَليها ، من أجلِ كلمات كتبتْها ؟ ! وماذا تصنعُ به تلك الجاريةُ وهى مَيتَة ، ويكفيها ثوبٌ من القطن تستر جِسْمَها به ، ونحنُ — معشر الأحياء — أحقُّ بكل ذلك منها ؟ ! ثم تقدمَ وصعد فى سُلمٍ حتى كان بين العبدين ، وإذا أحدُهما يضربهُ فى ظهرِه ؟ والآخرُ يحزّ عُنقَه بسيْفِهِ ، فوقع مَيتاً لا حراك به ، فقال الأميرُ موسى : ليسَ وراء الطمع إلاّ الخُسرانُ والفزع ، لقد كان لك فى هذه الأموالِ ما يكفيك.

وبعد أن حملوا ما شاءوا من الأموال والجواهر ، أمرهم أن يغلقوا باب المدينة كما كان ، ثم ارتحلوا وساروا على السّاحل ، حتى أشرفوا على جبل عال مشرف على البحر ، وفيه مَغارات كثيرة ، بها قومٌ من السودان ، يلبسُون نطوعاً ، وعلى رءوسهم برانِسُ من نُطُوعٍ أيضاً ، ويتكلمون بلغةٍ لا يعرفُها أحدٌ ، فلما رأوا موسى وعسْكرَه فروا إلى مغاراتهم هاربين ، وكان لهم مَلِكٌ يعرفُ اللغة العربية ، وسأَل الأمير موسى الشيخ عبد الصمد حينئذ عن هؤلاء فقال :

إنهمْ طَلِبةُ أَمير المؤمنين ، فحطوا رحالهم ، وضربوا خيامهم ، وما كادوا يستقرون فى منازلهم حتى جاءهم ملكُ السودان ، فتلقاهُ الأمير موسى لقاء حَميداً ، ثم قال ملكُ السودان : أنتمْ من الإنسِ أم من الجنّ ؟ فقال الأمير موسى :

نحنُ من الإنس ، أما أنتم فيظهرُ لى أنكم من الجنّ ، لانفرادِكم فى هذه المغاراتِ المنقطعة ، وامظيم خلْقِكم ، وضخامةِ أجْسامِكم ، فقال ملكُ السودان : ونحنُ إنسٌ من أولاد حام بن نوح عليه السلام ، وأما هذا البحرُ فإنه يُعرفُ بالكرْكر ، فقال موسى : أراكَ الآن تعرفُ شيئاً ، فكيف جاءكم العلمُ إلى هذا المكان ، وهو منقطِعٌ عن العُمران ، فقال ملكُ السودان : اعلم أيها الأمير أنه يظهَرُ لنا من البحْرِ شخصٌ له نورٌ يضىء مكاننا هذا ، وله صَوتٌ يسمَعهُ القريب منّا والبعيد ، فينادى : يا أولادَ حام استحيُوا ممنْ يَرَى ولا يُرَى ، وقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنا أبو العباس الخضر ، فاستجبْنا لندائِه ، وآمنّا وصدقْنا ، وكنّا من قبلُ يعبدُ بعضُنا بعضاً ، وقد علّمَنا كلماتٍ نعبُدُ الله تعالى بقولها ، فقال موسى :

وما تلكَ الكلمات ؟ فقال : « لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، يحيي ويُميتُ ، وهو على كلِّ شىء قدير » ونحنُ لا نعرفُ شيئاً نتقربُ به إلى اللهِ غيرَ هذه الكلمات وكلّ ليلة جمعةٍ نرى على الأرض نوراً ، ونسمَعُ صوتاً يقول : سُبُّوحٌ قدوسٌ ، ربّ الملائكةِ والروح ، ما شاء اللهُ كانَ وما لم يشأْ لم يكنْ ، كلُّ نعمةٍ من فضل الله ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ العليّ العظيم ، فقال له الأمير موسى :

نحنُ أصحابُ ملك الإسلام ، عبد الملك بن مروان ، بعثنا لنُحْضِرَ إليه من بحرِكم هذا قماقِمَ محبوساً فيها العفاريتُ من عهدِ سليمان بن داود عليه

السلام ، فقال ملكُ السودان : مرحباً بكم ، وبملك الإسلام ، حاجتُكمْ مقضية ، فاستريحُوا أنتم واطمئنّوا ، وأمرَ الغواصين أن يحضِرُوا له ما يستطيعون إخراجَه من القماقِم السُّليْمانية ، ثم أحضرَ لهمْ طعاماً من أنواع السمك ، فأكلوا جميعُهم حتى شبعُوا ، وكان الغواصونَ قد أحضروا اثنى عشر قمقما ، ففرح بها مُوسى وصَحبُه ، وتبادلَ الأميرُ موسى وملكُ السودانِ الهدايا ، ثم ارتحلُوا مُشيّعِينَ بالحفاوَةِ والإجلال ، ومعَهمْ هدية من سمَكٍ على صورة إنسان .

وَصَلَ موسى ومنْ معهُ إلى بلاد الشام ، ودخلَ على أميرِ المؤمنين ، وحدثَهُ بما رأى ، وما حصلَ لطالبِ بن سهلٍ ، فعجبَ وقال : ليتنى كنتُ معكم ، فأفوز بمشاهدة ما شاهدتم ، ثم أخذ القماقم ، وجعلَ يفتحُها قمقما فى إثر قمقم ، والعفاريت يخرجون قائلين : التوبة يانبىّ الله ، ولنْ نعودَ إلى مثل ذلك أبداً ، وجعل أميرُ المؤمنين للسمَكِ الذى على صورة إنسان حِياضاً مملوءةً بالماء ، وألقاه فيها ، ولكنّهُ لم يستطع الحياة فيها فمات ، ثم وزّع أميرُ المؤمنينَ ما أحضَرهموسى من الأموالِ والجواهِرِ على المسلمين

وقد طلبَ موسى إلى أمير المؤمنين أن يستخلفَ ابنَهُ مكانه ، ويعفيَهُ من عملِه ، حتى يذهَبَ إلى القدس ، يعكُفُ هناكَ على عبادة الله ، فلبَّى رغبَته ، وذهبَ موسى إلى القدس وعكف على عبادةِ الله فيه حتى مات .

وإلى هنا ينتهى حديثُ مدينة النحاس .



أبو محمد الكسلان

كانَ هرون الرشيدُ جالساً يوماً على عرشهِ ، ورجالُ الدولةِ وقوادُ الجيش يحفُّونَ من حَولِهِ ، فدخَلَ عليه غُلامٌ منْ صِغار الخصْيان ، وعلى يديه تاجٌ من الذهب المرصع بنفيسِ الدر ، وغالى الجوهر ، فتقدمَ الغُلام ، وأدَّى فروضَ الإجلال والاحترام ، وقال سيدتى زبيدة تقرئك السلام وتقول : إنها أمرتْ بِصُنْعِ هذا التاج ، فجاءَ بَديعاً مُعجِباً ، ولكنْ ينقصُه جوهرةٌ كبيرة ، وقد فتشَتْ فى خزائنها عن الجوهرةِ الكبيرةِ التى تريدُها فلمْ تجِدْها ، فأمرتْنِي أنْ أحضرَ بالتاج بين يدَىْ مولاىَ الخليفة ، ليأمرَ بإحضار الجوهرةِ الكبيرةِ التى تنشُدُها . فقال أحدُ الجالسين: لا توجدُ

هذه الجوهرةُ إلا فى البصرةِ ، عند رجلٍ يسمى « أبا محمد الكسلان » فأمر الخليفةُ بإحضاره بين يديه .

وكتب جعفرٌ كبيرُ وزرائه إلى محمد الزبيدى والى البصرة ، كتاباً أمره فيه أن يُرسلَ إلى أمير المؤمنين أبا محمد الكسلان ، وبعث بهذا الكتاب عَبداً من عبيد الخليفة يسمى مسرورا

وسافر مسرور من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة ، وهناكَ ناولَ الوالى محمداً الزبيدى ، كتابَ جعفر البرمَكِيّ ، كبير الوزراء ، فلما قرأَه أمرَ فى الحال ثلاثةً من جنودهِ أن يصحبوا مسروراً إلى دارِ أبى محمد الكسلان ، لإحضارِه إليه ، وتبليغِهِ أمرَ الخليفة .

ولما طرَق مسرور باب دار أبى محمد الكسلان ، خرجَ إليه غلامٌ من غِلمانه ، فقال له : أَخبرْ سيدَكَ أنّا رُسُلُ الخليفة ، جئنا فى طلبِه ليحضُر إليه ، تنفيذاً لأمره ، فتلقاهم أبو محمد ، والبشرُ يترقرقُ فى وجهه ، ويتألقُ فى عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة ، لأمرِ الخليفة ، ولكن تفضلُوا لتريحوا ظهورَكم ، حتى أتجهّز للرحيل معكم ، ثم سار بهم فى بهو فسيح زُيِّن بستائر من حريرٍ مطرزٍ بالذهب ، إلى أن أجلسَهم فى حجرة واسعة ، فرشتْ بالبسُط الحريرية ، وصفت فيها مقاعد فاخرة ، وتدلتْ من سقفِها قناديلُ نحاسِيّة مُموهَةٌ بالذهب ، ولم يجلسوا غيرَ قليلٍ من الزمن ، حتى وُضعَ أمامهم سِماط ، عليه ما تشتهيه الأنفسُ من أنواعِ الطعام ، فى أوانٍ مذهبة متألقة ، وبعد أن طَعِمُوا جعلَ أبو محمد يُحَيّيهم ويُسَليهم ، وزادَهم إكراماً



وحُظوة ، فأعطى كلاً مِنهم خمسةَ آلافِ دينار ، وباتوا فى داره حتى الصباح ، ثم ذهبوا جميعُهم إلى دار والى البصرة ، واستأذنوه فى السفر إلى بغداد .

وكان أبو محمد الكسلان قد ركب بغلةً سرجُها من ذهب ، ومعه بغلةٌ أُخرى ، تَحمِلُ ما شاء من الهدايا ، وجَدّوا فى المسير حتى دخلوا مدينة بَغداد وكان مسرورٌ فى عجَبٍ من هذا الغِنَى العظيم .

دخلَ أبو محمد على الخليفة فحيَّا وعَظّم ، فأمره بالجلوسِ فجلسَ فى احترام وأدبٍ جَمّ ، ثم استأذن الخليفةَ فى الكلام فقال : جئتُ أميرَ المؤمنين بهدية صغيرة ، ولكن قبولك إياها تجعلُها كبيرة ، فقال الرشيد : قبلنا هديتَك وشكرناك . فأمرَ الكسلانُ بإحضار صندوق من الصناديق التى معه ، ثم فتحهُ فأخرجَ منه تفاحاً ، على أشجارٍ من ذهب ، وأوراقُها من زُمرد ، وثمارها لؤلؤ أبيض ، وياقوتٌ أحمرُ وأصفر ، ثم أمرَ بإحضار صندوقٍ آخر ، فأخرج منه خَيمةً من ديباج مرصّع بكريم الجوهر ، على أشكالٍ تمثل طوائفَ من الحيوانِ والطيْر ، فأبدَى الخليفةُ بذلك سرُورَه وإعجابَهُ ، ثم قال الكسلان : ما أحضرتُ تلك الهديةَ خائفاً ولا طامعاً ، ولكنى وجدْتها لا تصلحُ إلا لأمير المؤمنين أعَزّ اللهُ جُندَه ، وأيدهُ بنصر من عندِه وإن أذِنتَ لى عرضت عَليكَ شيئاً جديدا أقدِرُ عليه ، فقال الرشيد : افعلْ ما شئت يا أبا محمد ، فحركَ شفتَيْه ، وأومأ إلى ستائرِ النوافذِ فتحركتْ نحوه ، ثم أشارَ إليها أن ترجِعَ إلى مكانها فرجَعت ،

ثم نظر إلى الأبوابِ والنوافذِ المفتّحةِ ، فظهرت كأنها مُقفَلة ، ثم تمتم كأنه يتكلّم ، وإذا بأصوات طيورٍ تُسمعُ كأنها تجيبُه ، ثم نظر نظرةً أخرى ، فرجَع كل شيء إلى ما كان عليهِ .

أثارَ كلُّ أولئكَ دَهشةَ الرشيد ومَن معهُ ، فقال : كيفَ أصبحتَ يا أبامحمد على هذه الحال ، وما عرفتُ عنك إلا أنك كسلانٌ ، وأن أباكَ كان حَلاقاً يخدمُ فى حمام ؟ ! فقال : حَديثى عَجيب ، إن أذنَ لى أميرُ المؤمنين قصَصتُه ، فقال الرشيد : حَدِّثْ بما تَشاء . فقال :

كان أَبى حَلاقاً ، عاش فقيراً ، ومات فقيرا ، وكُنتُ أكسَلَ مخلوقٍ فى الدنيا ، لا أبرحُ مكانى ، إلى عملٍ لى أو لغيرى ، وكانت أُمى تخدمُ فى بيوت الأغنياء وتُطعِمنى وتسقينى .

وذات يوم جاءتْنى أُمى فى مكانى الذى لا أُفارقُه ، وفى يَدِها خمسةُ دراهم ، وقالت لى : إن التاجر أبا المظَفّر عزم على رحلةٍ إلى الصين للتجارة ، وهُو يحبُّ الفقراء ويَعْطفُ عليهم ويُساعدُهم ، فخذْ هذه الدراهم الخمسة ، واذهبْ إليه ، واسألهُ أن يشترى لك بها شيئاً من بلاد الصين ، عسى أن يكون لك فيهِ ربحٌ يُساعدُنا على المعيشة ، فقلتُ لها :

إنى هنا قاعِد ، ولا أُحب أن أذهبَ إلى أَحَد ، وما يمنعُك أنت أن تذهَبِى إليه وتقولى له ما تشائين ؟ ! فأقسمتْ يميناً لم تتركْ ريبَةً فى نفسى ، لتكُفَّنَّ عن إطعامى وخِدمتى إن لم أُطِعْها ، فقلت : على شرط أن تُلبِسينى حذائى ، وتُقيمينى من قُعودى ، وأن أتوكأ عليك حتى نَصلَ إلى أَبى

المظفر ، ففرحت وقالت : سأفعلُ ما تشاء ، وسأصحبُك حتى تعودَ إلى مكانِك ، ولا تُغضِبْ بقُعودِكَ أمَّك ، فيغضب عليك ربُّك ، فسَخَطُ الرب فى سخط الوالدين .

ولما وصَلنا إلى أبى المظفر — وكانَ إذ ذاكَ على ساحلِ البحر — سَلمتُ عليه ، وسألتُه أن يأخُذَ منى الدراهمَ الخمسة ، ليشترىَ لِى بها حاجةً من الصين ، يكونُ لِى فيها ربحٌ ينفعُنا ، فسأل أصحابَه عنى ، فقالوا : هذا أبو محمد الكسلان ، وما رأيناهُ قد خرجَ من منزلهِ إلا هذه المرَّة ، فأخذ منى الدراهمَ قائلا : بِاسمِ الله وعلى بركةِ الله ، ثم رجعتُ أنا وأمى إلى دارى .

وسافر أبو المظفر وأصحابُه إلى الصين ، وهُناك باعُوا واشتروا ، وربحُوا من المال الوفير ماشاءَ لهم القَدر ، ثم ركبُوا سفينتَهم راجعين ، وبعد ثلاثة أيام من مَسيرهم فى البحر ، تذكرَنِى أبو المظفر ، فقال لرفقائِه: قِفُوا ، فقالوا : ماذا جرَى ؟

فقال : نسيتُ أن أشترىَ شيئاً لأبى محمدٍ الكسلان ، فارجعُوا بنا لنشترىَ له شيئاً قد يَكونُ له فيه مَنفعَة ، فقالوا :

لقد لقينا من أهوالِ البحر كلَّ نصَبٍ ومَشقَّة ، ثلاثة أيامٍ متوالية ، نخذْ منا أضعاف الدراهم الخمسة ، ولا تَرجعْ بنا ثانية ، فنزل على رأيهم ، وجمعَ لأبى محمد الكسلان مالاً غيرَ قليل منهم ، ثم ساروا بالسفينة حتى رستْ على جزيرةٍ عامرةٍ بأهلها وسكانها ، فنزلوا فيها ليشتروا شيئاً من

بضائعها ومُنتجاتها ، وبينما هم يسيرون فى الجزيرة ، رأى أبو المظفر رجُلا جالساً ، وأمامه عددٌ كثيرٌ من القردَة ، ومن بينها قِردٌ منتوف الشعر ، لا تسكتُ القِرَدةُ عن ضَربه وإيذائه ، فأشفق عليه أبو المظفر وقال لصاحبه : أَتبيعُنى هذا القرد ؟ فقال : اشْتر ، فقال : إنّ معى خمسةَ دراهمَ لصَبي يتيم ، فهل ترضى أن تأخذها ثمنا لهذا القرد؟ فقال: رَضيتُ وبُورِكَ لكم فيه، ثم أَخذوه معهم، وربَطوهُ فى مركبهم، واستأنفوا فى البحر مَسيرَهم حتى رستْ بهم على جزيرةٍ أخرى ، يستخرِجُ الناسُ عِندها من البحر اللؤلؤَ وغيره من الأحجار الكريمة .

وهناكَ استأجر أَبو المظفر ورفقاؤه الغطاسين ، فجعلوا يغطسونَ ويخرجون ما يَجدونه فى قاع البحر من الجواهر ، فلما رأى القردُ ما يَصنَع الغطاسون حلَّ قيده وغطس مثلهم، فظن أبو المظفر أن القردَ أفات وغرق وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله ! لقد فقدنا القردَ الذى اشتريناهُ بمالِ الغلام الكسلان ، ولكنه لم يلبثْ أن رآه قد خرجَ من البحر ، يحملُ كثيرًا من الجواهر ، وتقدّم بها ووضعها بينَ يَدى أبى المظفر ، فعجب وقال : إنّ لهذا القِرد سرّا عظيما ، ثم ركبوا سفينتهم وجَرتْ بهم حتى أَرسَوْها على جزيرة يقال لها جزيرة الزنوج ، وهم قومٌ يأكلون لحوم البشر ، وما كادُوا يرَوْنهم حتى جاءوهم مسرعين ، وأحاطوا بهم فى البر ، وفى البحر على قواربهم الكبيرة ، وأوثقوهم بالحبال وساقوهم إلى مليكهم

فأمر بذبح جماعة منهم ، وبات الباقونَ فى غَمٍّ وحزنٍ عظيمين ، ومخافةٍ منْ مصيرهم الذى يتوقعون ، وكانَ القردُ معهم ، فنهضَ فى منتصف الليل ، وحل قيدَ أبى المظفر ، فلما رأى التجارُ أن أبا المظفرِ أصبحَ حرًّا طليقا ، قالوا له :

لقد قيّضَ الله لكَ من نجاك ، وأصبحتْ نجاتنا الآن فى استطاعتِك ومتناول يديك ، فقال لهم :

لقد جعلَ الله خلاصى على يدِ هذا القرد ، فجعلتُ اصاحبه لقاءَ ذلك من مالِى ألفَ دينار ، فصاحوا جميعُهم قائلين :

وقدْ شَرَوْنا نجاتنا بأموالنَا ، ففُكَّ قيودنا ، وسرِّحنا من رِبْقنا وعُقُلنا ، على أن يهبَ كلٌّ منا لصاحب هذا القرد ألف دينار ، فلما سمع القردُ ذلكَ منهم ، قام إليهم وحلّ قيودَهم ، وأخرجهم من رِبْقهم وعُقُلِهم ، ففرّوا إلى مركبهم ، وأقلعوا سالمين ، ثم طلب منهم أبو المظفر أن يفوا بما وعدوا ، فأعطاه كل منهم لصاحب القرد ألفَ دينار ، واجتمع له من هذا مالٌ وفير ، واستمرت بهم السفينةُ سائرة ، حتى وصلوا إلى مدينةِ البصرة ، ورجع كل منهم إلى بيته .

قال أبو محمد الكسلان : وبينما أنا فى دارى ، وفى مكانى الذى لا أُفارقه دَخلتْ علىّ أُمى وقالت :

جاء أبو المظفر ، فاذهبْ إليه ، وسَلمْ عليه ، واسألهُ عن الحاجة التى كلفتَه بها ، فعسى أن يكون لك فيها نفع عظيم ، فقلت : إن كنْتِ قد

نَسيتِ شَرْطى فلستُ بذاهب إليه ، فقالت : إن طلبت منى أن أحملكَ على رأسى فإنى راضية ، فتوكأتُ عليها ، وأنا من الكسل كأنى أحملُ جبلا ، ولما رآنى أبو المظفر قال :

أهلا بمن كانتْ دراهمه سببا فى نجاتى ، ونجاة رفقائى ، من مَوتٍ عاجلٍ محتوم ، خُذ هذا القرد ، واذهبْ به إلى بيتك حتى أجيء إليك ، فاعترانى لذلك همٌّ ناصب ، وحزنٌ أليم ، ثم رجعنا إلى البيت وأمى ساكتة لا تَنطِقُ بكلمة ، لِمَا حاق بها من حيرة ودهشة ، فقلتُ لها : أليس القعودُ خيرًا من الحركة ؟ لقد كنت تطعمينَ أبا محمد الكسلان وحده ، فأصبحتِ مكلفة بإطعامه وإطعام القرد معه ، وهذه تجارتكِ التى طمعت فى ربحها ، فلم تجِبْنِى بكلمة ، وكأنها لم تسمع منى قولا .

وبينما أنا جالسٌ فى بيتى إذ أقبل أبو المظفر وأخذنى معه إلى بيته ، وهناكَ أمر غلمانه أن يُعطونى المال فى صناديقه ، وناولنى مفاتيحها وقال : هذا ربح الدراهم الخمسة ، ثم أمر غلمانه أن يحْملوا الصناديق إلى بيتى ، وما رأتها أمى حتى فرحتْ فرحا عظيما وقالت :

أليست الحركةُ خيرا من القعود ؟ ! ألم أحذرْك عاقبة الكسل غيرَ مرة ، وأنت لا تسمعُ ولا تُطيع ؟ ! فخجلتُ منها ، وعرفتُ أن الكسلَ طريق إلى الفقرِ ، ونَسْخٌ لآية الحياة وعزمت على أن أنزعَ عنى لباسَ الكسل ، وأن أشتغل بالتجارة من ذلك الحين .

استأجرْتُ دكانا فى سُوق المدينة ، وصَحبنى القرد فيها، فهو يشاركنى

فى الجلوسِ والأكل ، غيرَ أنه كان يترك الدكان كل يوم من الصباح ثم يأتينى ظُهرا ، ومعهُ ألف دينار ، واستمر على ذلكَ مدةً طويلةً من الزمن ، حتى جمعَ لى مالا كثيرًا ، اشتريتُ به المزارعَ والبساتين ، وكثيرًا من المنازل والقُصور ، والمماليكِ والجوارى ، وأصبحتُ من أكابر الأغنياء فى المدينة ، بل أغناهُم وأوفرهم ثراء ، وأوسعهم نعمةً وجاهًا ورَخاء .

وذات يومٍ رأيت القردَ فى الدكان يلتفِتُ يمينًا وشمالا على غير عادة ، فنظرتُ إليه ، وكأنى أسأله عن ذلك ، فقال :

يا أبا محمد ، فلحقنى منه رُعبٌ وفزع ؟ فقال : لا تخفْ ، وسأخبرُكَ عن أمرى ، واستمر قائلا : أنا ماردٌ من الجن ، وقد صحبتُك لإصلاح حالك ، وأنت الآن من أكابر الأغنياء ، وأحبُّ أن أشيرَ عليك بأمر فيه كلُّ خيرٍ لك ، فقلت : وما هو ؟

فقال : أُريدُ أن أزوجك فتاةً كأنها البَدْر ، وستكونُ هى سببًا فى زيادة نعمتِك ، وكثرة مالك ، وعظيم راحتك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال :

اذهبْ إلى سوق العلافين ، واسألْ عن دكان الشريف ، فإذا جلست إليه فقلْ له : إنى راغبٌ فى زواج ابنتك ، فإن قال : لا أزوجها إلى رجلٍ لا مالَ له ولا حَسب ، فادفع له ألف دينار ، فإن طلب المزيدَ ، فأعطه ما يريد .

لبستُ أفخرَ ما عندى من ثياب، وركبتُ بغلتى وعليها سَرج من ذَهَب، وذَهبتُ إليهِ فى عشرة من عبيدى، فلما سلمتُ وجلستُ قال :

لعلّ حاجةً جاءت بكَ إلىّ ؟

فقلت : جاء بى إليك، رغبتى فى زواج ابنتِك .

فقال : لن أزوّجَ ابنتى لرجل لا مالَ له ولا حَسَب .

فناولتُه كيسا فيه ألفُ دينار قائلا : ذلك حَسبُ من لا حسبَ له .

فأطرق الشريف ثم رفع رأسَه قائلا : إن كنت تريدُ الزواج فأعطِنى ثلاثة آلاف دينارٍ أخرى .

فأرسلتُ عبدًا أحْضرها من بيتى، ولما أخذها أغلق دكانه، ودعا أصحابه، وذهبنا جميعا إلى بيته، وهناكَ أبرمنا عقدَ الزواج، واتفقْنا على أن أَدخل بها فى بيتِهِ بعد عشرةِ أيام، ثم قفلتُ راجعا، وقصصْتُ على القرد جميع ما جرى . ولما دنا موعدُ دخولى بالفتاه قالَ القرد : إذا كانتْ لى حَاجةٌ عِندكَ، فهل أنا واجدٌ عندَكَ رغبةً فى قضائها ؟ فقلت : لايُحجِمُ عن قضاء حاجــةٍ لك إلالئيم جَاحِد، فقال : وإنْ أنت قضيتها فلك عنْدى ما تشاء، فقلت وما حاجتك ؟ فقال : : فى الحجرة التى تدخُلُ فيها ببنتِ الشريف خِزانةٌ من الحديد، وفى بابها حَلقةٌ من نُحاس، ومَفاتيحُها تحت هذه الحلقة، فإذا فتحتَ الخزانةَ وجدت داخلِهاَ صُندُوقا من الحديد، على أركانه الأربعةِ، أربَعُ رايات من الطلسَم، ويتوسط الراياتِ وعاء مَملوء بالمال، وبجانبه سكين، وفى

وَسط الوعاء ديكٌ أفرقُ أبيضُ ، والذى أريدُه مِنكَ ، أن تذبحَ الدّيك بهذهِ السكين، وتقطع الرايات، وتقلب الصندوق، فإذا انتهيْتَ من ذلك فاذهبْ إلى زوجِك ، واستمتِعْ بها ليلتَك ، فقلتُ له : ذلكَ شيءٌ يَسير لا يُساوى شيئاً صَغيراً من معرُوفِك ، وسأنفذُه كما أردْت .

وفى الليلة الموعُودة كنت أنا وزوَجتى فى تلك الحجرة ، فجلسنا نتحادثُ فى شئونٍ عِدة ، حتى غلبَها النومُ واختطفَها من يَدى ، فانتهزت هذه الفُرصَة ، وفعلتُ ما أشارَ به القرد ، ولما استيقظت مِنْ نومها ورأتنى فَعَلتُ ما فعلتُ قالت فى ألمٍ وحَسْرة : لاحَول ولا قوةَ إلا بالله ، أخذنى الماردُ ، وما أتمتْ كلامها حتى كانَ الماردُ قد خطفَها ، وكان قد أحْدَثَ فى القصر ضجةً شعرَ بها والدُها ، وعرَف عاقبتهاَ ، فجاءنى حَزيناً غاضباً وقال : أهذا جزاؤُنا مِنك ؟ لقد عمِلتُ هذا الطلسمَ لأَصُون بنتى من ذلكَ الماردِ الذى يُحاول اختطافَها منذُ سِتّ سنوات ، والآنَ فاذهبْ إلى بيتك ، وكفانا هذه النكبةُ التى أصابتنا بسببك .

ولما رجعتُ إلى بيتى فتشتُ عن القرد لعلّه يساعدُنى فى إرجاع زوجَتى ، فلمْ أجدْ له أثرا ، فعلمتُ أنه هو الذى خطف الفتاةَ ، وأنه هو الذى خدعنى ومكَرَ بى ، حتى فعلتُ بالطلْسَمِ ما أمَرَنى به ، فلمْ أُطِق البقاء فى بيتى ، وخرجتُ أمشى على غيرِ هدى ، وبينما أنا سائر وجدتُ حيّتين تتقاتلان ، إحْداهما سَمراءُ وكانت الباغيةَ الغالبة ، والأخرى بيضاء وكانت المغلوبة ، فأخذتُ حجراً وضربتُ به السمراءَ الظالمةَ فماتت ، أما البيضاء



فإنها غابتْ قليلا ثم عادتْ ومَعَها عشرُ حياتٍ بيض ، فاجتمعن حول السمراء المقتولة ، وجعلنَ يقطعنها قطعةً قطعة ، ثم انصرفنَ إلى حيثُ لا أدرى . وكنتُ قد شعرتُ بالتعبِ فاضطجعتُ فى مكانى ، وسمعتُ صوتاً لا أعرفُ مصدرَه يقول : أرِحْ نفسك من التفكير ، فلا مفر من المقدور ، ولا بقاء على حال ، فدوامُ الحال من المحال ، فانتبه وِجْدانى وأخذت أتبيّنُ صاحبَ هذا القول فلمْ أجِدْ له أثرا ، فأطرقتُ إطراقةَ انكِسارٍ وحَيرَة فإذا بالصوتِ أسمَعُه يعيد هذا القول مرةً أخرى فقلتُ على أثره : سألتكَ باللهِ أن تظهرَ لى يا صاحبَ هذا الصوت ، فإنى فى حاجةٍ إلى الائتناس برؤيتك ، كما ائتنَسْتُ بقولك ، فإذا بإنسانٍ قد وَقف أمامى قائلا : نحنُ من الجنِّ المؤمنين ، وقد فعلتَ بنا مَعروفا ، فجئنا إليك لنكون فى خدمتك ، وقضاء حاجتك ، اعترافا منا بجميلك وفضلك ، فقلت :

لى حاجةٌ عظيمةٌ ، والأمل فى قَضائِها ضعيف ، فقد أُصبتُ بمُصيبةٍ كانتْ من صُنع يدى ، ومخادعتى ممنْ وضعتُ فيه ثقتى ، ولا مخلص لى منها ، فقال : ألَستَ أبا محمد الكسلان ؟

فقلتُ : بَلَى وَربّى ، فقال : أنا أخو الحيةِ البيضاء التى قتلتَ عدوها ، وأنا وأخواتى الحيات نشكرُ لك هذا الجميل ، واعلم أنّ القرد الذى كان عندكَ ، هو الذى خَطَفَ زوجك ، وهو ماردٌ من الجن ، وقد احتال عليك وخدعك حتى أفسدتَ الطلْسم ، ليتمكن مِنْ خطفها ، ولكنّا

سنقتُله ونردُّ إليك زوجك ، ثم صاح صيحةً عظيمة ، فحضر على أثرها جماعة من الجن ، فسألهم : أين الماردُ الذى خطف الفتاة زوجة أَبى محمد الكسلان ؟ فقال أحدُهم : إنهُ فى مدينة النحاس ، ثم التفت إلىّ قائلا : سيحملك ماردٌ على ظهره ، ويطيرُ بك إليها ، وسيُعرِّفك كيف تُحضرها، ولكن احذرْ أن تنطق بكلمةٍ وهو طائر بك ، فإنك إن نطقت بكلمة أهلكته وكنت معه من الهالكين .

ارتفع المارد بى فى الجو حتى خيل لى أنّى قريبٌ من السماء ، وإذا بشخص فى الجو قدْ لبس ثوبا أخضر ، ولهُ وجهٌ جميلٌ ، وفى يده حربة يتطايرُ منها الموت ؛ فنادانى قائلا :

يا أبا محمد، قُل : لا إله إلاالله محمد رسولُ الله، ولم يكدْ ينتهى من قوله حتى وجدتنى أَنطق بالشهادتين ، ثم ضرب المارد الذى يحملنى بحربته ، فمات لساعته ، وصار رَمادا ، ووقَعتُ فى بحرٍ واسع ، على مقربةٍ منْ مركَب به خمسة رجال صيادين ، فأسرعوا لإنقاذى من الغرق ، وحملونى فى مركبهم ، وجعلوا يكلمونى وأنا لا أفهمُ لواحدٍ منهم قولاً ، فأشرت إليهم أنى لا أَعرف لُغتهم .

ولما وصلوا بى إلى مدينتهم ، وأدْخلونى على مليكهم ، وكان يتكلم باللغة العربية ، منحنى خلعةً وقال :

قد جعلتك من أعوانى ، وأمر وزيره أن يطوف بى فى أنحاء المدينة لأعرفها وأعرف ما فيها ، وكانت من مُدنِ الصين ، يقال لها هناد، وكان

سكانها الأولونَ كفارا ، فمسخهم الله حجارة ، وأقمت فيها مدةَ شهر مُكرما ، وأنا لا أدري سببا لهذا الإكرام .

وبينما أنا جالسٌ ذات يومٍ على شاطئ نهرٍ ، أقبلَ عَليّ فارسٌ وحياني بِخَيّته ، ثم قال : ألستَ أبا محمد الكسلان ؟

فقلت: بلى وربّي ، فقال : لقد فعلت بنا جميلا ، فقلت : ومن أنت ؟ فقال : أنا أخو الحية البيضاء التى قتلتَ عدوّها ، ولا تخفْ فأنت الآن على مقربةٍ من زوجتك التى خطفها المارد ، وسأعينك على الوُصول إليْها ، ثم ألبَسني ثوبا من ثيابه ، وأردَفني خلفَه ، وأرخى العنانَ لفرسه ، فطارَ بنا ينهبُ الأرض نهبا ، حتى وصلنا إلى بريّةٍ واسعةٍ ، يشرفُ عليْها جبلان ، فأنزلَني وقال :

سِرْ بين هذين الجبلَيْن حتى تصلَ إلى مدينةِ النحاس ، التى فيها زوجَتُك ، ولا تدخلْها حتى أجيئَك .

أخذتُ أسيرُ بين الجبَلين حتى وصَلتُ إلى مَدينةٍ سُورُها من نحاس ، فعلمتُ أنها المدينة المقصودَة ، فطفتُ حول سورها فلم أجِدْ فيه بابا ، وبينما أنا فى دهشةٍ منْ أمرِ هذه المدينة التى لا باب لها إذ أقبَلَ أخو الحية ، وناولنى سيفاً مطلْسَما ، يقيني الشرّ ويمنعُ عنى الأذى ، وكان معه إخوته ، فقالوا :

ألا ترى هذا الجدول الجارى ؟ فقلتْ : نعم ، فقالوا : سِرْ مَعه حتى تراهُ انْعرج نحو المدينة ودخلها من فَجْوةٍ فى الأرض ، فألْقِ نفسك فيه ،



وادخلْها مع مائه ولا تخف شيئًا ، فنفذتُ ما أشاروا به ، حتى كنتُ فى وسط المدينة ، فرأيت بُستانا : أشجارهُ من الذهب ، وأثماره من الجواهر الكريمة ، ولما دنوت منه رأيت زوجتى جالسةً فيهِ على مقعد ذهبى جميل، تحت قبةٍ موشاةٍ بالذهب ، فجريت نحوها ، ولما رأتْنى عَرفتنى وجرت نحوى قائلة :

أهلا بزوجى ، وأجلستْنى على مَقعدٍ بجوار مقعدها ، ثم سألتنى :

كيف وصلتَ إلى هـذه المدينة ؟ فحكيتُ لهـا ما جَرى لى بعد خطفها ، وقصت هى قِصّتهـا ، وكيف حملها الماردُ إلى هـذه المدينة ، ثم قالت :

إنّ هذا الماردَ الملعونَ من كثرة حبهِ لى أطلعنى على سِرّه ، وما يضُرُّه وما ينفَعُه ، ولقد هممتُ مرارا بالهرب بالوسيلة التى دلنى عليها ولكنى خِفْتُ الإخفاق ، وما يعقبه من غضبه وانتقامِه مِنى ، ومادمتَ قد جئت فسأدلك على وسيلة تنجينا من هذا المارد ، وتمكننا من العودةِ إلى أهلينا بالبصرة ، وذلك أن تذهبَ إلى ذلك العمود القائم بالحديقة — وأشارت إليه — وستجدُ عنده تمثالا صغيرا لعُقاب ، وعليه كتابةٌ لا أعرفها ، فإنْ أنت أخذتَ هذا العقابَ وبخرته بالمِسْكَ ، حضر إليك العفاريتُ من كل فجّ ، وكانوا طَوع أَمرِك ، وفى استطاعتهم أن يخلصُونَا منْ هذا المارد ويوصلونا إلى البصرة .

فقمتُ إلى ذلك العمود ، وفعلتُ بالعَقاب ما أمرتنى به ، وحضر

العفاريتُ من كل ناحية ، وقالوا : نحنُ فى طاعتك ، فمرنا بما تُريد ، فأمرتُهم أن يقيدوا المارد الذى خطف زوجتى بالأغلال والسلاسل ، حتى لا يبرح مكانه ، ولما فعلوا ما أمرتُهم به رَجعتُ إلى زوجتى ومعى العُقاب ، وخرجتُ بها من الطريق الذى دخلتُ منه إلى المدينة ، فوجدتُ إخوة الحية البيضاء فى انتظارى ، فساروا بنا نحو البحر ، وأحضرُوا لنا مركبا حَمَلنا إلى مدينة البصرة ، فذهبتُ بزوجتى إلى بيتى ، وعَلِم بذلك أبوها وأهلَها ، فجاءونا مُسرعين ، يُهنِّئوننا بالعَوْدة سالمين .

وبعد أن استرحنا فى بيتنا آمنين ، بخَّرْتُ العقابَ بالمسك فحضرَ العفاريتُ قائلين : لبيك لبيك ياسيدنا ، فمرنا بما تريد ؛ فأمرتهم أن ينقلوا إلى بيتى ما فى مدينة النحاس من ذهب وجواهر ومال ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم جعلتهم يحضرون المارد الذى خَطف زوجتى ، فلما حضر أمرتهم أن يحبسوه فى قمقم ضيّقٍ من النحاس ، وأن يحكموا إغلاقه بالرصاص ، ففعَلُوا ثم سَرّحتُهم ، وأصبحتُ بفضل الله فى هذا الغنى الواسع ، وأصبح العفاريتُ فى طاعتى وتحت أمرى ، بسبب العُقاب الذى عنْدِى ، وهذه حكايتى يا أمير المؤمنين .

فعجب الخليفة ، ثم أكْرمَه وخلى سبيلَه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واللهُ ذو الفَضل العظيم .



عبد الله البرى وعبد الله البحرى

(١)

زَعَموا أنه كانَ فى البَصرة — إحدى مُدنِ العراقِ — صيَّادُ سمكٍ اسمُه عبدُ الله ، وكانَ عائِلا ذا بنين وبناتٍ ، فقيرًا ؛ يعيشُ عِيشةً ضَنْكا ؛ ولكنَّه كانَ قليلَ الشكوى ؛ يقْنعُ باليسير ، ويرْضَى بالقَليلِ ؛ وكانَ يغدُو كلَّ يومٍ إلى البحرِ ، ثمّ يرُوحُ بما اصْطادَهُ من سَمك ، يبيعُه ، ويَشترى بثمنه رِزقا لزوجِهِ الحُبْلَى ، وأطفاله الصِّغار .

وجاء زوجَه المخاضُ ، فى يومٍ آذَنَتْ شمسُه بالمغيب ، وانطَلَقت ريحُه عاصفةً قاصفة ، وَوَمَضَ برقُهُ لامِعاً خاطفاً ، وهَطَلَ مطرُه متداركا متتابعاً .

وما طَلَعَ الفجرُ أوكاد – حتى وَضَعتْ زوجُه ولدا ، وأصبحَ عائلَ عَشْرة ، لا يكسبُ أكبرهم قوتَ يومه ؛ فلم يبتئس عبدُ الله ، لأنه يَعلَم أن « الذى شَقَّ الأشْدَاق ، متكفِّلٌ بالأرزاق » .

وبات عبد الله ليلته ساهدًا ساهِرا ، لم يَذُق النوم إلا غِرارًا ، ولم يُقعِد به ما عَنَاهُ عن تبكيره فى طَلَبِ الصيد كعادته .

فخرج إلى البحر مع الصباح ، وظلَّ يرمى شبكته دائبًا لا يَعرفُ فُتُورًا ، حتى أدركَهُ الليلُ ، وأمْسى المساء ، ولم يفتحْ الله عليه بسمكةٍ واحدةٍ ، فقفل راجعًا كاسفَ البال ، ضيِّقَ الصدر ، لا يَدْرى ما السبيلُ إلى طَعَامِ زوجٍ نُفَساء وأطفالٍ زُغْبِ الحواصل جِيَاع .

ولكنه مرَّ فى رواحه على حانوت خبَّاز فوجد عليه جماعةً من الناس يتدافعون بالمناكب ، وسَرْعَان ما عطرتْ رائحةُ الخبز معاطسه ، فصاحت عصافيرُ بطنه ، وأطرق متنهداً ؛ فتوسَّم الخبازُ ما فى نفسه ، فناداه :

ياصيادُ ! أتريد خبزاً ؟

فسكتَ عبد الله لايحير جوابًا .

فقال له الخبازُ :

لا تستنكفْ أن تطلبَ خبزاً بثمنٍ مؤجل إلى أمرٍ قريب أو بعيد .

فقال له عبدُ الله فى كثير من الحياء :

أشكرُ لك كرمَك ، ولكنَّ نفسى لا تطوِّعُ لى هذا ، فخذ شبكتى

هذه رَهْنًا عندك ، حتى أُوَفيك ثمن خُبْزِك .

فقالَ الخبازُ : كيفَ ترهَن شبكَتكَ يا مسكين ، وَهى عُدَّتُكَ وعَتَادُك ؟ !

فقالَ له عبد الله : صدقتَ ، وأبقىَ على الشبكة ، وأَخذَ من الخباز ما يكْفى أهلَ بيته من الْخُبزِ ، ونَفحه الخبازُ عشْرةَ أنصاف فِضَةٍ للنَّفقةِ .

ظَلَّ عبدُ اللهِ على هذا الحالِ أربعين يوماً يَغْتَدِى إلى البحر ، ثم يروح خَاوِى الوِفاضِ ، لم يَصِدْ سمكةً واحدةً ، ثم يمرُ على الخبازِ مستَحْيِيا ، يُحث خُطاه ، حتى لا يراهُ ؛ ولكنَّ الخبَّازَ يُنَاديه ، ويُعطيه ما تَعَوَّد أن يُعْطِيَهُ من خُبزٍ وفِضَّةٍ ، من غير أن تَخْبُثَ نَفْسُه ؛ فيعرضَ عنه ، ويمنَعَه رفدَه .

وفى اليوم الحادى والأَربعين استيقظَ عبدُ الله مبكرًا ، وتناوَلَ طعام الصَّبَاح ، وتَلَكأَ فى الخروج .

فقالتْ له زَوْجُه : مالك لا تُعدُّ العُدَّةَ للخروج إلى البحر كعادتك ؟

فقال لها ، وقد بدا البؤسُ واليأسُ على وَجْهه :

لقد مَلَلْتُ الصيدَ فى غيرِ جَدوى ، وكَرِهتُ أن أمُرَّ على الخبّاز كل يومٍ ؛ فيُعْطِينى خُبزًا وفضة .

ثم ثارتْ ثائرته ، وهَمَّ بتمزيق الشبكة ، لولا أَنْ حَالَتْ زوجُه بينه وبينها ؛ وقالَتْ له :

أَقنَطتَ من رحمة ربِّك ؟

فقال لها : أعوذُ بالله أن أكون من القانطين ؛ ولكنى أكاد أذوب حياءً من الخباز كلما تصدق عَلَىَّ ، وليس لى طريقٌ إلى البحر إلا طريقه .

فقالت له زوجُه : هل مَنَّ عليكَ ، أو آذاكَ بكلام ؟

فقال لها : معاذَ الله ! إنه لَنبيلٌ كريم ولكن إلى مَتى يتراكم علىّ الدَّينُ وهو (هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار) ولا ألمحُ فى أفْق الأمل رجاءً فى أَدائه .

فقالتْ : هوِّن عليك فسيكْفيكَهُ الله ، ويرزقُك من حيثُ لا تحتسب .

فسمعَ الصيادُ لزوجه ، ولَقِىَ كلامها منه قبولا حسناً ، فحملَ شبكتهُ ، وذهب إلى البحر ورماها يصْطاد ، فَشَعَر بعد قَليل بثقل فيها ، فهَشَّ واستبشر ؛ ثم عالجها ؛ حتى أخرجها بعد عناءٍ شديدٍ ؛ ولكنه وَجدَ فيها حِماراً مَيِّتاً ؛ فقال :

لا حولَ ولا قوّة إلا بالله .

ثم انتبذَ مكاناً قصيًّا ؛ حتى لا تأْخذه رائحة الجِيفَة ، ورَمى شبكته ، ثم جذبها فوجدها ثقيلة فأخذ يُعالجها حتى أَخْرجها ، وقد أَدمَت يديه ؛ فإذا فيها مخلوق عجيبٌ ظنه ماردًا يبغى به شرًّا ؛ فَسرت الرِّعدةُ فى جسمه ، ورمى الشبكة على الأرض ، وولّى هاربا ؛ يصيحُ من الخوف ، يَرجو المعونة والغوثَ ؛ فانبعث من الشبكة صوتٌ يناديه :



لا تخف يا أخا البشر ، فإنى لَستُ ماردًا ، ولا شَيْطانًا ، ولكنِّى عبدٌ من عبادِ الله المؤمنين سكانِ البحر ، لا أُريق دمًا ، ولا أوذى إنسانًا فتعال خَلِّصْنى من شبكتك ، فقد أَضرَّت بى حبالها ، ولك من الله الأجر ، ومنى الحمد والشكرُ .

فلما سمع عبد الله كلام البحرى سكن روعُه ، واطمأن قلبه ، وسرى عنه ؛ ورجع إلى شبكته ، فخاص البحرى منها ، وتبيَّنه ، فإذا هُو فى نصفه الأعلى إنسانٌ كاملُ الخلقة ، له لحية كَثَّة ، وشاربان محفُوفان ، وأنف أَقنى وعينان واسعتان براقتان ؛ ثم هو فى نصفه الأسفل سمكةٌ لها ذنب ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين .

فقال له عبد الله : من أنت ؟ !

فقال البحرى : أنا عبدُ الله ، أسكُنُ البحر ، وأسبحُ فى جنباته ، كما تسكنون أنتم معشر الإنس الأرضَ ، وتمشون فى مناكبها ، وقد رميت على شبكتك فى أثناء تجوالى ، وكان فى وُسْعى أن أقطعها ، ولكنى خفت الله ، وقد صرتُ فى يدك ، فافعل بى ماتشاء ، ولو أعتقْتَنى ابتغاء مرضاة الله ، لكنتُ لك من المخلصين : أغوصُ فى البحر وآتيك كل يوم بما تشاء من در وزمُرّد ، وياقوتٍ ومرجان .

فأطْلَقَ عبد الله البرى عبد الله البحرى ، بعد أن تآخيا ، وتعاهدا على أن يأتى عبد الله البرى فى مطلع الفجر ، ومعه بعض ما تنْبتُ الأرض من تين ، وعِنب ، وسَفرجل ، وتُفاح ، وكمثرى ، وبلح ، ورُمان ؛ ليلاقَى

عبد الله البحرى ، ومعه بعض ما يخرج البحر من در ، وزُمرد ، وياقوت ، ومَرْجَان .

وغَاص عبدُالله البحرى فى البحر ، بعد أن قال لعبد الله البرىّ :

البثْ قليلًا ، آتك ببعض ما عندنا من جواهرَ قيمتُها عندنا قيمة الحصى والحصباء عندكم .

ولبث عبدُ الله البحرى بضع دقائق ، خالَها البرى ساعاتٍ طويلة ، فهجست فى نفسه الهَواجسُ ، وندم على أن صدق البحرى ، وعلى أنْ تركه يفلت من يده ، فما يدْريه ؛ لعَلَّهُ أن يكون خبًّا مخاتلا ، خدعه بزخرفِ من القولِ .

وبينما هو كذلك ، تساورُه وساوسه إذ خرج البحرىُّ فى كلٍّ من يُمناهُ ويُسْراه قبضةٌ من الجواهر الكريمة ؛ فلما رآهُ البرى تهلل وجهه بشرا ، وندم على أن ظنَّ بصاحبه سوءًا .

ثم كان بينهما موقف وَداع ، فغاص البحْرى فى البحر ، وعاد البرى أدراجه بعد أنْ ألقى بالشبكة فى الماء .

ومرَّ الصياد على الخباز ، فناداهُ كعادته ، فلبَّى نداءه ، ولما أعطاه الخبز والفضة أعطاه نصف ما معه من جواهر ، وقال له :

خذْ هذه الجواهر جزاء وفاقًا لكرمك ، وطيب عنصرك ، ونبل أخلاقك .

ففغر الخباز فاه دهشًا ، وأخذ منه ما قدَّم له ، ثم دعا له بالسعادة ، وطول العمر .

ولما وَصَل عبد الله إلى بيته، ورأتْ زوجُه وبَنُوه ما معه من جواهر خرَّت المرأة ساجدةً لله، وانهمرتْ من عينْيها دُموع الفرح، ورقَصَ الصِّبْية جذلاً وحبورا.

وبعد أَن أَوَى عبد الله إلى مَضْجعه، واستَجمَّ قليلا، حمل جوهرةً ثمينةً، وذهب بها إلى كبير الصَّائغين، يعرِضُها للبيعْ؛ فلما رآها الصائغُ في يَدِه، حَدجه بنظَرة فاحِصَة لا تخلو من عجب ودَهشة؛ ثم سأله:

من أين لك هذه الجوْهرة؟

قال: هيَ جوهَرَتى، وعندى منها كثير.

فنادى الصائغُ الشرطيَّ، وكلَّفه أن يقبض على عبد الله متهماً إيَّاه بالسطو على بيت الوالى، وسرقة جواهر زوجه، وكان اللصُوص، قد سَطَوْا عليه بالأمس، وسرقوا ما عَثروا عليه من حُلًى وجَواهر.

وسيق عبد الله إلى بيت الوالى مكبَّلا بالحديد، فسأله الوالى:

من أين لك هذه الجوهرة؟

فروَىَ له قصته فى تفصيل لم يدعْ منها شيئاً.

فعجب الوالى جدَّ العَجَب، وأمر، فعُرِضَت الجوهرةُ على زوْجه؛ فَشهِدَت بأنها لا تُشْبه أىَّ جوهرة من جَوَاهِرِها المسروقة؛ فثبَتَتْ بذلك براءةُ عبد الله.

وظلَّ عبدُ الله يتردَّدُ على البحر، ويلْقَ صديقه البحْرى فى الزَّمانِ والمكان الذى يَتَّفقان عليه كلَّ مرة، فيُقَدِّمُ هُوَ له ما يحملهُ من صنوفِ

الفوَاكه ، ويُقدِّم له البحريُّ جملة من ثمين الجواهرِ ، ويجلسان بعض الوقت يتحدثان ويتسامران ، ثم يُسلِّم كلٌّ منهما على صاحبه ، ويفترقانِ على مِيعاد.

وباعَ عبدُ الله البرى بعض ما كان يأتيه به البَحْرى من جواهر ، واختصَّ بها صِغارَ الصَّائغين ، وحرم كبيرهم من شرائها ، جَزَاءً وِفاقاً لسوءِ ظَنِّه بالنَّاس ، وتسرُّعِهِ فى اتِّهامهم ، وإهمال الرَوِية فى الأمر الجسيم .

واشْتَرى ببعض ماصارَ له من ثمنِها ضياعاً عريضةً ، ورياضاً أريضة ، وحدائق غلباً ، وبنى قصُورا لا تأخذُها العينُ ، وذكرَ الفقراء والمساكين واليتامى والأيامى ، فأجْرَى عليهم أرْزاقاً ، وبنى لهم مُستَوصفاتٍ ، ومَلاَجِئَ ؛ يفزعون إليها إذا تَنَكَّر لهمُ الدهرُ ، أو عثر بهم الجد ، فمضهم المرضُ ، وألحتْ عليهم العلة .

وشاع بين الناسِ اسمُ عبد الله ، ولمع نجمُه ، وعلا كعبُه ، ولقَّبُوه بالغَنِي الكريم ، وقرّبه الوالى إليه ، وعَرَض عليه أن يزوِّجه من ابنته ، فقال عبد الله :

« معاذَ الله أن أُضار من أحسنَتْ عشرتى فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء ، ومن كنتُ إذا ضَلَلتُ هَدَتْنى ، وإذا سئمتُ الحياةَ بعثتْ الأمل فى نفسى ؛ هل آكلُها لحماً ، وأُلقيها عظْماً ؟ ! والله لا يكونُ هذا أبداً » .

فأكبر الحاكمُ وفاءه ، وبالغَ فى إكرامه ، وقال له :

ما أردتُ بزواجِكَ من ابنتى إلا أن يَعْلُوَ شأنك ، وتسموَ إلى

درجة الأُمراء ، فلا يكيد لك كائد ، ولا يَطمعُ فى مالك طامع ، فإن المالَ يغْرى الناس ، وإذ قدْ رغبت عن أن تكونَ أميرا ، فإنى جاعِلك وزيرا .

فشكرَ عبدُ الله للوالى عطفه عليه ، وحَدَبه به ، وإكرامه له ، ودَعا له بالعزِّ والتأييد ، وبَسْطَة السُّلطان .

(٢)

اغْتَدى عبد الله البَرى إلى البحر يوما كعادَته ، ومعه غُلامُه الأمينُ يحمل سلَّة مملوءةً بالفاكِهة ، فوجد عبد الله البَحْرى فى انتظاره ، فتبادلا التحية ، وقدَّم إليه الفاكهة ، فأخذها ، وغاص بها فى البحر ، ثم رجع بعد قليل ومعه السلَّة ملأَى بالأحجار الكريمة ، فأعطاها البرىّ فتاه ، وأمره أن يتوجه بها إلى القصر ، وجلس يتحدث إلى البحَرى ، ويستمع إليه ، والحديث ذو شجون :

قال البحرى : هل حججت البيت الحرام ، وزرت النبىَّ الكريم ؟

فقال البرى : لا ، لأنى كنتُ فقيرًا ، لا أستطيعُ إلى ذلك سَبيلا .

قال البحرى : إنى أعجبُ لكم معشرَ البريّين ، يُلهيكم التكاثرُ حتى تزوروا المقابِر ! ! (وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدُوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرا) ، فليتنا نستطيعُ نحن البحريين أن نحُج البيتَ أو نزورَ قبرَ النبى ! !

فقال البرى : جزاكَ الله يا أخى خيرا ، فلقد بَصَّرتَنِي بواجبٍ مقدَّس

أعاهدُك على أدائهِ فى القريب إذا شاء الله ، وسأدعُو لك حين أستلمُ الحجرَ الأسودَ أن يشرح الله لك صدرَك ، ويرفعَ عنك وزرك ، وأذكرُك بخير فى الروضة الشريفة .

فقال البحرى : خار اللهُ لك فيما عزمتَ عليه ؛ وسأحمِّلك أمانةً تعلِّقُها بيدِك فى الحرم النبوىّ ، وهى أكبرُ درةٍ احتوتْ عليهـا البحارُ ، فهيّا معى إلى دارِى أسلمك هذهِ الدرة اليتيمة .

قال البرى : إنى لا أستطيع معك صبرا على المـاء ، فإنه يغرقنـا ، ولا يُغْرِقُكم .

قال البحرى : إنه لـكذلك ، ولـكنى ذاهبٌ إلى دارى ، وسآتيكَ بدِهَان عندِى يعصمك من الغرق ، ولا عاصمَ إلا أن يشاء الله .

قال البرى : لك ذلك .

وغاص البحرى فى المـاء ، ولم يطل به المقامُ حتى عاد وفى يده صدفة كَبيرةٌ فيها دهان أصفرُ كالذهبِ ، طيِّبُ الرائحة .

قال البرى : ومم يُصنع هذا الدِّهان ؟ !

قال البحرى : يُصنعُ من شحم نوع من السمك يسمى (الدَّندان) وهو أضخم دواب البحر جِسمًا ، وأعظمُها قوةً ، وأشـدُّها فتكا ، وأضْراها لنا عداوة .

فقال البرى : وهل عِندكم من (الدندان) كـثير ؟

قال البحرى : هو فى البحر كالرّمل فى الصحراء .

قال البرى : إنى أخاف أن يأكلنى (الدندان) إذا أنا غُصتُ معك في البحر .

قال البحرى : لا تخفْ ؛ فإنه لا يخافُ من شيء خوفه من الإنسان ؛ فإذا رآك معى ، فرّ هارباً لا يلوى على شيء .

وخلع البرىُّ ثيابَه ، ودهَنه البحرىّ بالدِّهان ، وغاصَ البحرىّ في الماء ، وتردد البَرىّ .

فناداه البحرى :

أقدم يا أخى ، وتوكّلْ على الله .

فاستخارَ الله ، واندفع في الماء ، فألفى جسمه خفيفاً ، وغاص فيه ؛ فوجد نفسه بريئاً من الضِّيق الذى كان يشعرُ به حين كان يغوصُ في الماء ، يطلب الصيدَ في سِنيه العجاف ؛ فاطمأنَّت نفسه ، وتبعَ البحرىَّ ، ومشيا معاً على قاع البحرِ ؛ فشاهد عبدُ الله البرى جبالاً شاهقة وهضاباً مبسوطةً ، وسهولا فسيحةً ، ووديْاناً عميقة ، ورأى أنواعاً من السمك لا يُحصيها العد ، قد تبايَنَتْ حُجُومها ، واختَلَفَت ألوانُها ، منها ما يُشبه الفيلةَ ، وما يُحاكِى البقر ، وما يضارع الكلاب ، وما يضاهِى الثعابين ورأى حيواناً عجيباً له نحو خمسين ذراعاً يتلوّى في الماء كما تتَلَوّى ثعابينُ البر ، ورأى ألواناً لم ير لها في البرِّ شبيهاً ولا مَثيلا ، من أبيضَ ناصع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر ناضِر ، وأصفرَ فاقع ، وأسودَ فاحِم ، وألواناً أخرى لا يعرِف لها أسماء .

وسُرعان ما وصَلاَ إلى أول مدينةٍ من مدائن سُكّان البحر ، فوجد شوارعَها متّسِعةً منَسّقةً مستقيمَةً تشُق المدينةَ من أقصاها إلى أقصاها ، وبَهرَتْهُ الحدائقُ كثيرةً رائعةً ، والبساتينُ نَضِرَةً بارعةً ، والمدارسُ جميلةً واسعةً وهاله أن يَرَى المساجدَ مبنيةً بأحجارٍ كريمة ، يكاد سَنَا نورِها يخطِف بالأبْصار .

وكانا كلّما قابَلا بحريًا ابتسما وحَنَا رأسَه إجلالاً لهما واحتفاءً بهما ، ولكن فى كثير من الدَّهش والعَجَب ، ومنهم من كان يقترِبُ من البحَرى ، فيكلمُه كلاماً لا يفهمه البرَى ، ثم ينطلِقُ إلى سبيله .

قال البرى للبحرى : عم يسألُونَك ؟ !

قال البحرى : يسألونَى عنك ؛ لأنهم يعجَبُون كيف خلقكَ الله من غير ذنب .

قال البرى : سُبحانَ الله ! هم يعجبون لخلْقِي من غير ذَنب ، وأنا أعجب لخلقِهم بأذناب !

وغادر البحرى والبرى المدينة ، وضَرَبَا فى مسالكِ البحارِ حتى أشرفا على مدينةٍ ذات أسوارٍ عالية ، لها أبوابٌ ثقيلةٌ مصفحةٌ بالحديد وما كادا يقترِبَان منها ؛ حتى أهاب بهما حُراسُهَا أن قِفَا فوقَفَا ، ثم انحرفا عن طريقها .

قال البرى للبحرى : وما خَطبُ هذه المدينة ؟

قال البحرى : هذه مدينة المذنباتِ من النساء ؛ فإن كل أنْثى

تقترِفُ ذَنباً مهما يكُن صغيراً ، تغادرُ أهلَها وبلَدها وَوَلدها (إن كان لها ولد) من تلقاء نفسِها إلى هذِه المدينة ، تقضى فيها حياتَها ، تقومُ الليلَ ، وتصومُ النهارَ ، عسى الله أن يغفرَ لها ذنبها .

فعجبَ البرى ، وقال : وهل عندكم مدينةٌ للمذنبين من الرجال ؟!

قال البحرى : نعم !

قال البرى : وهل عندكم كما عندنا قُضاة ، وشُرَط ، وعَسَس ، وخُفَراء ؟ !

قال البحرى : لا . إن كلَّ بحرى يعرف قوانينَ البحرِ ، ويؤمنُ بها ، فلا يخالفُها ، ولا يحاولُ الخروجَ عليها ، إلا قليلا ؛ ومن يخالفُها طوعاً ، أو كرهاً ، رجلٌ أو امرأة يُغادرُ أهلَه وبلَده وصحبَه إلى مدينةِ المذْنبين من الرِّجال ، أو مدينةِ المذنِبَاتِ من النساء .

قال البرى : وَكُلكم سواءٌ فى الغنى ، وبسطةِ المال ؟

قال البحرى : لا . مِنا الغنى ، ومنَّا الفقير ، وسببُ الغنَى واحد ، وهو الكَدُّ والجِد ، وسببُ الفقرِ واحد ، وهو الكسلُ والخمولُ .

وما زالا سائرينِ ، إلى أن وَصَلاَ إلى بَلدِ عبد الله البحرى ، وهى حاضرةُ مَلكِ البحريين ، فرأىَ فيها مِنَ العجائبِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلبِ برى .

وأكرمَ عبدُ اللهِ البحرىُّ مثوى صاحبه ، وعرَّفَه بزوجه وبناتِه وبنيه ، فرأى فى زوْجه جمالا وكمالاً ، وعِفةً وحياءً ، لم يعهدها بينَ

البريِّين ، ورأى فى بَنيه عِلْمًا وأدبا ، لم يألفهما فى بَنى قومه .

وانتهى خبرُ البرىّ إلى مَلكِ البحريين ، فبعثَ فى طلبهِ فصحبَه عبدُ الله البحرىُّ إلى قصرِ الملك ، وقصّ على الملك قصةَ صاحبه ، فعجبَ الملكُ جدّ العجب من شكله ، وتلطفَ معه فى القول ، واستأذنا فى الانصرافِ ، فأذن لهما ، فرجعا إلى دارِ عبد الله البحرى ، وحان وقتُ الغداء ، فقدم البحرىُّ لصاحِبه ألوانًا من السمكِ كثيرةً ، فعافها البرى ؛ وقال : إننا معشر البريِّين ، لا نأكل السمك نيئًا .

قال البحرى : ليس فى مُكنتنا أن نشعلَ النارَ فى البحر .

فقال البرى : هذا فراق ما بينى و بينك .

فشاع الحزنُ فى وجه البحرِى على فِراق صاحبه ، وقد كان بوُدِّه لو استطاع المُقام معه أيامًا ، ودخل فى غُرفة ، ثم خرج منها ، ومعهُ جوهرةٌ تكادُ لتألقها تُضىء ، فأخذ سناها ببِصره .

فقال للبرى : هذِه هى الأمانة التى حدثْتُكَ عنها .

وقبل أن يُغادِر البرىُّ دار صاحبه ، سمع غناءً فى بيتِ جار صاحبه البحرى ، فطرب له ، وسأل عنه ؛ فقال البحرى :

إن جارى قد أدركته منيتُه ليلة أمس ، فأهله لذلك يطربون ، ويقْصِفون .

قال البرى : إن أمرهم عجب ! يفرحون بموت أبيهم ؟ !



قال البحرى فى كثيرٍ من العجب : وماذا تصنعون أنتم معشر البريين إذا مات أحدكم ؟

قال البرى : إذا ماتَ أحدُنا ، حَزِن أهله ، وبكاه خِلاَّنه ، وقد يدفعهم الأسَى إلى لطمِ الخدود ، وشقِّ الجُيوب .

فقال البحرى : نعوذ بالله . إنكم لظالمون ، كيف تحزنُون حين يستردُّ الله وديعتَه ؟ !

ثم قال فى لهفة : أين الأمانة ؟ هاتِها ؛ فلستُم أهلا لهاَ ، وهذا فِراق بينى وبينك .

وخرج عبد الله البرى من البحر ، فوجد ثيابه حيث تركها ، فلبسها ، وذهب إلى بيته ولبث فى أهله يفكر فيما رأَى فى البحر من عجائب ، ظل يرويها فى المجالس ، ويتندر بها فى المنتديات ، إلى أن قَضى نحبه حين وافاه أجلُه المحتوم .



أنس الوجود والورد فى الأكمام

(١)

كان الملكُ شامخٌ ملِكا مرهوب الجانِب ، عزيزَ السُّلطانِ ، يحكُم بلادَه حكماً عادلاً ويَسهرُ على مصلحةِ شعبه ، ويعملُ على رفاهِيتِه ، وجلْبَ الخيرِ له ، متى وَجَدَ إلى ذلك سَبِيلا ، ويدفَعُ عن بِلادِه الأعداءَ والطامعين بدُربة ودِراية . لذلك كان محبوباً من شعبه ، مرمُوقا من رَعيتّهِ .

وكان الملكُ شامخٌ إلى جانب عنايَته بأمرِ الحكمِ فى بلادِه يُعنى بتهذيبِ قومِهِ وتعليمهم ، ورفع مستوى الثقافة بينهم .

وكان يحبُّ الأدب والأدباء ، ويكرم الشعر والشعراءَ ، وحبَّذ الألعابَ الرياضية ، وشجع الرياضيين .

فكان كثيراً ما يجتمعُ بقصره العلماء والأدباء والكتّابُ والشعراء ، يسمرون ويتناقشون ويتناظرون ، وكانت تمتدُّ جَلساتهم مع الملك إلى وَقْتٍ متأخر من الليل ، والملك لا يسأمُ مُجالَستهم ، ولا يملُّ محادثتهم ، بل كان يستزيدهم بأسئلةٍ تدلُّ على عِلمٍ غزير ، واطلاعٍ واسع ؛ وكان يحاجُّهم فى كلِّ بابٍ يطرقونه على الرَّغم مما يحمل من مشاق طول يومه فى تصريف شئون دولته .

كما كانَ من عادة هذا الملك أن يُقيمَ لفنُونِ الألعاب والرِّياضة المختلفة كالفروُسيةوألعاب السيف والصَّولجانوالكرة حفلاتٍ وحلبَاتٍ يحضرها بنفسه تشجيعاً للهواةِ على الاشتراك فيها ، وحفزًا لهم على إتقان ضروبها.

وكان لهذا الملك وزيرٌ لا يقل عن مَلِكه عِلما وفضلاً ، إسمُه إبراهيمُ ، كانت له ابنةٌ وحيدةٌ ، تنبّأتْ طلعتُها يومَ مولدِها على أنها سَتَكونُ فريدةً فى الْحُسْنِ والجمالِ ، فسمَّاها « الوردُ فى الأكمام » ونَشَّأَهَا على العلم والأدب والتهذيبِ والتَّقوى ، فشَبَّت بعقل مُثقَّفٍ راجحٍ ، ونفس وثابةٍ للعلا ، متفتحةٍ للأخذ من كلِّ منهل يزيدُ فى ثقافتها ، مشوقةٍ للارتشاف من كل ينبُوع تأنسُ منه ريًّا يطفئُ وَقدة ظمئِها إلى المعرفة .

وكان الملكُ يحنو عليها ويَدَلِّلُها وهى طفلةٌ ، فلما كَبرت ولمس فيها شِدَّةَ وَلَعها بالعلم وحبها للآداب — شملها برعايته وخصَّها بعنايته ، وأخذ بيدها فى كل ما استغْلَق عليها فهمهُ ، وأنزلها من نفسه منزلة الابنة .

وكانت عادةُ الملك أن يقيم حفلات رياضية ، يتسايفُ فيها الرجالُ ،

ويتسابق الفرسانُ ، فى ساحةِ قصره ؛ ويشهدها كثيرٌ من خاصَّته ، وكان النساء يشهدْنها من شُرُفات القصر .

ولم يحدُث قطُّ أن تخلفَتْ الوردُ فى الأكمامِ عن حُضُور أىِّ حفلة يُقيمها الملكُ لتشجيع أىّ ضربٍ من ضُروبِ الرياضة ، بل كانَتْ دائماً فى مقدِّمة المشاهدات من النساء ، محتلةً مكانها من شُرفَتها المشرفةِ على الساحة المعَدَّة للاحتفالات .

وكان المعتادُ فى أمثال هذه الاحتفالات التى يشرفها الملكُ أن يحضرها جميعُ رجال قصره وحَرَسه ورجال دَوْلته وجمعٌ كبيرٌ من الكُبراء والأعْيان .

ولفتَ نظر الورد فى الأكمام فى هذه الحفلات مرأى شاب وَسيم ، فارع الطول ، عريض المنكِبين ، جميل الوجه ، مَليح التقاسيم ، وكان دائما فى الصفوف الأولىَ بين رجال الملك ، ولم تكن تعرف منْ هو ، وكانت كلما همَّتْ بسؤال من يكُن معها من النِّساء استحَتْ من ذلك .

ثم أقيمتْ حفلةٌ لِلعبِ الكرة ، وكان الشابُّ على عادته ، أتى وجلس فى مكانه بين رجال الملك . والوردُ فى الأكمام أتتْ ، واحتلتْ مكانها من شُرفتها ، لا تصحَبُها فيها غيرُ قهرمانة لها ، فتشجعت وسألَتْ القهرَمانة :

من يكون هذا الشاب الواقفُ بين رجال الملك ؟

فقالت القهرمانة ، وهى تنظر إلى ناحية رجال الملك :

أىّ شاب تعنين ياسيدتى ؟ !

فقالت الورد فى الأكمام :

الشابُّ الوسيمُ الجميلُ ، الخفيفُ الظل ، العذبُ الرُّوح ، الذى لا تُفارق شفتيه ابتسامةُ الرضا والإيمان .

فقالت القهرمانة وهى تضحك :

إن جُلَّهم يا بنتى مليحٌ وجميلٌ ، وإنهم جميعاً ذوُو رُوح عذْب ، وعلى شِفاههم ابتسامات تدل على الرِّضا والإيمان ، فأيهم تقصدين ؟ !

فقالت الورد فى الأكمام : انتظرى حتى أُشيرَ لك عليه .

وكانتْ بيدها زَهرةٌ تتَسَلى بشمِّ رائحتها فألقتْها إلى ناحيته ، فسقطتْ بالقُربِ منه ، ورآها الشاب وهى تسقط ، فرفعَ بصره بنظرة خاطفةٍ يتطلع إلى مصدرِها ، فَلَمحَ الورد فى الأكمام وقهرمانتها تتكلمان معاً ، وتنظران إليه ، فعلم أنه موضوعُ حديثهما .

فاختلس نظرةً إلى الشرفة ، فراعه ما عليه الوردُ فى الأكمام من جمال خَلابٍ ، وحُسْنٍ باهرٍ ، ونَظرٍ ساحر .

وكانت نظرةٌ . لم يستطعْ بعدها أن يغُضّ من بَصَرِه ، أو أنْ يتحكّم فى قلبه الذى اشتدّت خفقاته ، وتتابعتْ ضرباته تتابُعاً سريعاً .

وكانت القهرمانة حينئذٍ تقولُ للورد فى الأكمام :

هذا الشابُّ يا بنتى اسمه أُنْسُ الوجُود ، وهو من أصْفيـاء الملك وخُلَصَائه المقـرَّبين إليه يُحبه ويُؤْثرُه لحسن شمائِله ، ودَماثة خُلقِهِ ،



وَوَدَاعَته ورقته ، وخَلابة حديثه ، وَسعة أُفُقه ، وغَزارة عِلْمه ، وطيب عُنْصُره .

والتقتْ عينا الورد فى الأكمام بعينى أنس الوُجود ، فقرأتْ فى عينيه فرط إعجابه بها ، وعرفَتْ من الابتسامة الخفيفة التى رفّتْ على شفتيه حين التقتْ عيناهُما سرعة شعوره ، وتأثره بها .

فاضطربتْ ، وعلا خدَّيْها حمرةُ الحياء ، ورجَفَ قلبُها رجفةً ما كانت تتوقّعُها ، وارتعشتْ يدُها ، نخشيتْ أن يلْمَحَ أحدٌ تلك الحالة النفسية التى فاجأتها ، فأسدلتْ نقابَها على وجهها حياءً وخجلا .

أما أنسُ الوجود فقد ارتسمت على وجْهه صورٌ متباينةٌ لشتى الانفعالات والمشاعر التى اعْتَمَلَتْ فى نفسه ، فقد غَضَّ من بصره حياءً وخجلا ، وحاول أن يُخفى ما ألَمّ به فى نفسه وفى قَلْبه عن رُفقائه حتى لا يَفْطِنُوا له .

ولم تستطعْ الوردُ فى الأكمام أن تَتَبعَ المباراة ، واختلط أمام ناظريْها الغادى بالرّائح ، ولم تعرفْ من الخذل أو من ظفر .

أضحت الساحة أمامها كخلية نحل شاغية لاغطة ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، لا يُمَيَّزُ فيها وجه ، ولا يُفْهَمُ فيها لَفْظٌ ، ولم تر إلا وجه أنس الوجود ولم تفهم إلا اسمه .

ثم رُوَيدًا رُوَيدًا مُحِيت من أمامها جميعُ هذه المرئيات ، وطُمِسَ من سَمْعها صوتُ الهتافات والنداءات ، وأصبحتْ هذه الساحةُ الصاخبةُ

العاجَّة بالضجيج أمام عينيها بيداء مُقفرة يتوسطها علمٌ زاهٍ رَفَّافٌ يجذب ناظريها إليه على الرّغم منها. وحتى لا ينكشفَ أَمرُها لم تجدْ بُدًّا من أن تنسحبَ من مَقصورتها وتغادر الحفل.

أما أنس الوجود الذى كان يضطرم قلبه اضطراما، ويضطربُ اضطرابًا لا شعوريًّا عجيبًا فإنه فقدَ اتزانَ أعصابه، والسيطرة على نفسه، أحسَّ أنه نهبٌ لأنظار كلِّ منَ حوله، فقد ظلَّ قائمًا فى مكانه، ولم يستطع الانسحابَ كما فعلَتْ الوردُ فى الأكمام.

وأسرعت الوردُ فى الأكمام إلى مخدعها.

يا لله!! ماذا أَصابها؟! وما الذى دَهاها وغيَّر منها؟! ما لقلْبها خافق؟! ومالفؤَادها واجف؟! وما لجسدها يضطرب ويختلج؟!

أَهى مريضةٌ؟! أم هى مغرورة؟! أم هى خائفة؟!

ما هى بمريضة رغم ما تشعر به من وَهن، وما هى بمغرورةٍ رغم ما انتابها من ارتجاف، وإنما هى خائفة!! خائفةٌ لما ألم بها، وَوَجلةٌ مما اعْتراها.

دلفت إلى حجرتها لتمسح بين جدرانها ما نزل بها، وتخفى بين أستارها حيرتها وقلقها، ولكنها لم تستطع أن تمسح شيئًا، أو تستر شيئًا.

استلقت الوردُ فى الأكمام على سريرها لحَظاتٍ، ولكنها لم تلبث أن مدَّت يدَها إلى ورقة وقلم، وبثَّت مابها إلى تلك الورقة، وسطَّرَتهُ فى كلام بليغ، ثم طوتْ الورقة وخبَّأتها؛ ومن بين أُستارِ الحُجْرةِ لحظت قهرمانتَها أشجانَها، ورأتْ ما فعلت.

كانت الوردُ فى الأكمام قد شكت إلى الورقة ما انتابها ، وسطَّرتْ بها ما شعرتْ به وما أحسَّتْه ، ثم ما خافت وما خشيت ، ثمَّ ما ودَّت وما تَمنَّتْ .

وغلبَها النومُ بعد الأرَق ، فما استسلمت لِسلطانهِ حتى اقتحمت عليها الحجرةُ فى خطاً وئيدةٍ قهرمانتُها ، ومدَّت يدَها إلى الورقةِ وأخذتها ، وكان لها إلمامٌ بالقراءة ، فاستطاعت أن تفهمَ ما كتبت ، وتعرف ما طوت وما أخفت .

فلما استيقظتْ الوردُ فى الأكمام قالت لها القهرمانة :

ما بك يا بُنيَّتى ، إنى أراكِ ذابلةً متغيِّرة ؟

أجابتْ الوردُ فى الأكمام : ليس بى غيرُ وَعْكةٍ خفيفةٍ ، سُرعانَ ما تزُول ، وأكُونُ عما قليلٍ بخيرٍ وعافيةٍ .

ولكن المرأةَ أعادتْ عليها السؤالَ وقالت :

يا سيِّدَتى ؛ لا تكتُمى علىَّ ما بك ، بل بُوحِى لى بما يُحزِنُك أُخففْ عنكِ ، واشْرَحى لى ما يُضايقُك أعملْ على مُساعدَتك ، فلعلَّ الله يجعلُ بعد عُسرٍ يُسراً ، ويُخرجنا من الضيق إلى سَعَة ؛ وإنَّ انطواءكِ على نفسِك ، ومُبالَغتَكِ فى الكتمان — يُحرِّقُ صدرَكِ ويؤرِّقُ جَفْنَكِ .

وأعملت الوردُ فى الأكمام فكرَها ، أتبوحُ لها بما فى نفسِها ؟ ! ومَا وَجَلُها إلاَّ أن يَعرفَ ! أتشرحُ لها ما يُضايقُها ؟ ! وما خشيتها إلا إذاعتَه !

لا ؛ لن تبوح ، ولنْ تشرَحَ ؛ لأنها إذا ضاق صدرُها عن سِرِّها ، وتنفست جوانحها عن مكنون أمرها — عرَّضت نفسها لأقوال المرجِفين وشماتة الحاسدين ، وطبيعة نشأتها تمنعها ، وتربيتها تنهاها ، وأخلاقها تأمرها بكتمان أمرها ، وقبر أمانيها ، فليس لها أن ترجُو مساعدةً ، ولا أن تاملَ فى معونةٍ من أَحد .

فقالت : لا ، ليسَ بى ما أشكوُ ، وليسَ عِندى ما أشرح .

ولما رأت القهرمانةُ أن الورد فى الأكمامِ مصرةٌ على ألاَّ تبوحَ بشىءٍ من سرِّها احتالت عليها ، فقالت : ياسيِّدتى إننى ما قلتُ لك ما قلتُ إلا لِظنِّى أنك فى حاجةٍ إلى من يساعِدُكِ ، ويأخذ بيدك ، ليُخْرِجَكِ من مِحنة وقعتِ فيها ، فقد رأيتُ الليلةَ فى المنام رجلاً يقولُ :

إن سيِّدتَك الوردَ فى الأكمام غارقةٌ فى لُجَّةٍ من الحيْرة واليأس والقلق ؛ فعليكِ أن تأْخذى بيدها وتساعديها ، وتُضَمِّدى جراحها ، وتعملى على أن تخرجى بها إلى برالراحة والأمان ، وذلك لا يكونُ إلاَّ إذا تزوَّجَتْ من أنسِ الوجُودِ . وأوْصانى بالسَّهر عليكِ وصَوْنِ سِرِّكِ . وقد اعتقدتُ ياسيِّدتى أن تكون رؤْياى صحيحةً ، فليست أضغاث أحلام، يؤوِّلُها المؤوِّلون ، ويعبِّرها المعبِّرُون ، ولـكنها رؤْيا النفس الشفَّافةِ الوضيئةِ الطاهرة ، التى تحبُّ سيدتها ، وتخلصُ لها ، وتقف حياتها لخدمتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ، وروحى مقترنةٌ برُوحك ، تحسُّ ما تحسِّين، وتشعر بما تشعرين ، فأنا لَك ، فلا عليك إن أطعتنى ، ولا علىَّ

إن دبَّرتُ لك ما يُسْعِدُك ؛ ففى سعادتك سعادتى ، وفى راحتكِ راحتى ورؤياى صادقةٌ ، لأنها من تخاطُبِ الأرواح ، وتقارُب القلوب والنفوس .
فقَرَّ قلب الوردِ فى الأكمام فرحٌ غامرٌ ، وفاضَ فؤادُها راحةً وسكينة .

فأسندت رأسَها إلى يَدِها ، وأغمضت عينيها ، وسبحت بخيالها فى حُلم يقظةٍ تستعرض فيه نتيجة حُلم قهرمانتها ، فشعرت براحةٍ ، وأحسَّت بَرْدَ السعادة ، وأثلج صدرها فرحٌ وسرورٌ ، وتنهدت تنهُّدةً تنم عن اطمئنان وارتياحٍ ، وطفرت من عينها دمعة أحسَّت بَرْدَها على صدرها ، وبدأ الأمَلُ يَنفسحُ أمامَها ، وأحستْ نوراً يضىء الرحبَ الواسعَ أمامها ، فغلبتْ عليها ابتسامةٌ خفيفةٌ فاترةٌ ، حاولت أن تُخفيها ، فلم تستطع .

وبعدَ لحظاتٍ انتبهت من حُلمِها اليقظان اللذيذ فوقفَت سبحاتُ خيالها ، وعادتْ إلى الحقيقة ، وقاومت غواياتِ نفسها راجعةً إلى الجِد والعقل والرّشاد ، وقالت للقهرمانة :

ما رأيته فى منامِكِ ليسَ إلا أضغاث أحلام ، وإذا كنت كما تزعمين ترَيْنَ فى المنام ما يقعُ فى اليقظة ، فقد يخطئُ ملاكُكِ مرَّة ، أو يغلبهُ عليك شيطانُكِ ، فتكون هذه الرؤْيا التى رأيتِها من خطأِ مَلاكَك أو من رؤَى شيطانك ؛ ومع ذلك فإنها إن كانت صحيحةً فكيف الوصول إلى تحقيقها ؛ واعلمى أنك لن تعرفى من أمرى شيئاً ، ولن تقفى منى على شىء

مما تظنين ، فإننى إن طاوَعتنى عاطفتى غلبنى عقلى ؛ هوّنى عليكِ ، والله معنا .

لم يُعجبِ القهرمانة شدة حرصِها على كتمان أمرها عنها ، وأرادت أن تُواجهها بما علمت ، ورأتْ أن من مَصلحتها أن تعرض أمرَها عليها فى صراحةٍ كى تفكرِّ معها ، وتُعينَها على أن تُيسر لها ما تريدُ ؛ فقالت :

لِنقض على ترَدُّد الورد فى الأكمام فى التصريح لها بسرّها ، وقد فطنت إلى ما تعانيه من صراع بين قلبها وعقلها ، ووجَّهت إليها كلامَها : يا بُنيَّتى ما عليك حرج . فأنا كفيلةٌ برعايتِك وحمايتك ضنينةٌ بسرِّك ، آخذةٌ على عاتقى تحقيقَ ما رأيتُه لكِ .

فقالت الوردُ فى الأكمام :

هَبى أنَّ ما تريدين معرفته منى كان صحيحاً ، وأن ما تقولين كان حقَّاً ، فما الذى تودِّين أن تفعلى ؟

فقالتْ القهرمانة ، وقد سرّها أن الوردَ فى الأكمام قد ابتدأ يتحلّل تجلدُها ، ويلين عِنادُها .

يا سيِّدتى سأُمهِّدُ الطريق لِذلك ، وستعرفين عمَّا قريب أنَّك وكّلت أمركِ إلى أحبِّ الناس إليك ، وأعطفهم عليك ، وأبرِّهم بك ، وأكتمِهمُ لأمركِ ، وأقدَرِهم على تدبير الحيلة الشريفة لِنجاحك ؛ فطيبى نفساً ، وقَرِّى عيناً ، واهْدَئى بالاً ، ولا تبتئِسى ولا تحزنى ، ولا تستسلِمِى للوساوِس والأوهام ، واعتمدى على الله .

فقالت الوردُ فى الأكمام ، وهى تتضاجعُ فى فِراشها ، وتخفى وجهها بين وسائده ، وتتثاءبُ وتتمطّى ، مظهرةً عدمَ المبالاة والاكتراث بما تتحدّث به القهرمانةُ :

افعلى ما بدا لَكِ ، وسيرى فيما تريْن ، على الوجْهِ الذى يَرُوقُك .

فنهضت القهرمانة من لدُنها فرِحَةً منتصرةً ، تُمنّى نفسها من وراء ما ستقدمُ عليهِ الخيرَ الجزيل .

(٢)

استقبلَ أنسُ الوجودِ المرأةَ التى استأذنتْ فى الدخول عليه ، وهو دَهشٌ ، فمن تكونُ هـذه المرأة ؟! وما حاجتها ؟! وما دفعهـا إلى الاستِئذان عليه فى هذا الوقتِ ؟!

وقال لها : يا سيِّدتى ؛ من تكونين ؟! وماذا تريدين ؟!

قالت : يا سيِّدِى ؛ هل نحن فى خلوة لا يسمعنا أحَد ؟

قال ، وقد ازدادَ دهشةً : نعم ، لكِ أن تفصحِى عمَّا تريدين ، تحدَّثى يا سيِّدتى بما تشائين ، فليسَ أحدٌ يسمعُ حديثنا .

قالت باسمةً : ألم تعرفنى ؟!

قال ، بعدَ أن تَطلَّع إليها ولم يسعفهُ ذِهْنهُ فى تذكّرها : يا سيِّدتى اغفرِى لى إن كُنتُ رأيتك ولم أتذكَّرْ ، فإنى سريعُ النِّسـيان ، لا تعلَقُ بذهنى صورُ الوُجوهِ لمجرَّد الرؤية السريعة العاجلةِ التى تخطِفها

خطفاً ؛ فلعلِّى أكونُ رأيتُكِ مرَّةً ، ووقعتْ عينى عليكِ موقعاً سريعاً خاطفاً ، فظننتِ أنى ملأتُ عينى منكِ ، وما ملأتُها ؛ وظننْتِ أنى رسمتُ لكِ صورةً فى ذهنى ، وما رسمتها ، وليس ذلك عن قصد ، ولكن هكذا أنا ، فعفواً يا سيِّدتى .

فقالت المرأةُ ، وهى تضحك : حَسِبتُ أنَّك لا تنسى هكذا سريعاً ، فقد رأيتنى فقط بالأمس .

قال وهو يُحاوِلُ أن يتذكَّر أين وقعَ نظرُه عليها : ساعدينى يا سيِّدتى على تذكُّرِكِ ، وأيْن رأيتك ؟

قالت : رأيتنِى ، وملأتَ نظركَ وقلبَك ؛ ألم تذكر بعد ؟ !

قال ، وهو يستعجبُ ، ويكادُ يضربُ كفًّا على كفّ : أين يا سيدتى ؟ !

قالت: رأيتنى مع سَيدتى فى شرفتِها المطلةِ على سَاحةِ اللعب ، وجعلتَ تتفرسُ فيناَ ، ولا تغض نظركَ عنَّا ، مما أحْرجَ سيدتى ، ودفعهاَ على أن تنسحب قبل نِهاية اللَّعب .

طفر الدمُ إلى وجهِ أنسِ الوجود ، واحمر احمراراً شديداً ، واضطربَ اضطراباً ، وكأنه قد عصفَ بِه فجأةً عاصفٌ عنيفٌ ، وتَهدجَ صوته ، وتَلعثَم لسانه ، وأخذ يَقول :

إننى آسفٌ . آسف لما سببتُ لسيدتك من حرج عن غير قصدٍ . فهل هى غاضبة على ؟ ! وهل أتيت أنتِ من أجْل ذلك ؟ ! بلغيها أنى أعتذر ،

واطلبي لى منها العفـــو والمغفرة .

فقالت القهرمانةُ التى لم يفتها أن تلحظ مبلغ اضطرابه وتلعْثمِه ، وتفهم من ذلك ما أرادت أن تعرفَ عن اتجاه عواطفه :

إن سَيدتى لم تُكلفنى الحضور إليك ، فلا أَستطيعُ إبلاغَها رسالتَك ، وإنما أنا التى أتيتُ من تلقاء نفسى .

فقال بلهفة :

وهل هى غاضبةٌ على ؛ سَاخِطة لماَ حدثَ مِنِّى ؟ !

قالت :

لا أعلمُ إن كانت غاضبةً أو راضيةً ، فهى لم تصرِّح لى بشىء من هذا .

قال :

إذن ما سَبب حضُورك إلىّ إن لم تكن غاضبةً علىّ ؟

قالت :

إنى لم أقلْ إنها ليست غاضبة ، بل قلتُ إنها لم تصرِّح لى بشىء من هذا .

فظهرت على وجهِ أنس الوجود علامات الحيرةِ والقلق وقال ، للقهرمانة : إذن هل هنالكَ سببٌ آخر ؟

قالت : نعم .

قال ، وقد خفقَ قلبه ، وقوى لديه الأملُ الذى كانَ يداعبُ خيالَهُ طولَ يومه ، ويحاول أن يقصيه بعيداً عنهُ دون جدوَى :

وما هو ؟ !

قالت : إننى أنا الغاضبة الثائرة الساخطة .

فظهرت على وجه أنسِ الوجود علامات الامتعاض ، وخيبة الأمل ، جَلِيَّةً واضحة ، ومال برأسه نحو صدره متخاذلا ، وتمتم قائلاً :

وعلام غضبكِ وثورتكِ وسخطك أنتِ ؟ !

قالت : من أجل سَيدتى ، فهى من وقتٍ أن غادرت الشرفة ، وهى مُعتكفةٌ بفراشها .

فرفعَ أنسُ الوجودِ رأسه ، ونظر إلى القهرمانة ، وقد أحيا ذكرُ سيدتها الأملَ فى قلبه ، وقال مقاطعاً :

أمريضةٌ هى ؟ !

قالت : لا . ولكنها ساهمة واجمة ، ولا أدرى مابها ، وذلك ما دعانى أن آتى إليك عائدةً باللوم عليك ، فهو أنتَ الذى كنتَ سَبباً فيما طرأ عليها ، وأذهبتَ عنها بشاشتها وبهجتها ، ومسحَ عن شفتيها ابتسامة ما كانت تفارقها ، وأذبل عينيها الساحرتين ، وكسَّر أجفانهما ، وخيم على حجرتها سكون عميقٌ طويلٌ لا ندرى متى ينتهى .

فتفرس أنس الوجود فى وجه القهرمانة متفحصاً يسبر غورها ، ثم قال يحاول اكتساب مودتها :

إنكِ فيما يبدُو لِى وفيةٌ مخلصةٌ لسيدتكِ ، ويَهُمك جداً راحتها وهَناءتها

قالت لجاريه :

إنى لا بُغية لِى من الدنيا إلا أن أرى الرُّواء يكسو وجهها ، والا بتسامة تزين شَفتيْها .

قال : ما أطيب قلبك ! ألا تشملينني أنا أيضاً ببعض برك وعطفك ، وترْضَيْنَ عنِّى ؟

قالت وهى تبتسم :

يا سيدى لا بأس عليكَ .

قال : إنى لَأطمع منك فى أكثر منْ ذلك ؛ أريد أن تصنعى معى معروفاً ، وتُسْدى إلىَّ يداً .

قالت : إنى أرحب بأى عمل يمكنني أن أقدمه لك .

قال : هل أبوح لكِ بدخيلة نفسى ، وأكشفُ لك سرى ، معتمداً عليكِ فى مساعدتى ؟ !

أجابت : هاتِ ما عندك يا بنى ، ففى الحفظِ والصون سرك ، وسأساعدك ما دامت المساعدة فى مقدورى وإمكانى .

قال : المساعدة فى إمكانك لو أردت ، ولكنى أخاف أن تردِّينى ، أو لا تفلحى فى مسعاكِ إن سعيت ، فيكون فى ذلك شقائى .

قالت القهرمانة مظهرةً الارتياحَ لقوله :

حفظك الله يا سيدى من كل سوءٍ ، أفض إلىَّ بمتاعبك ، واطرح علىَّ

مخاوفك ؛ وثق أنني سأعمل جاهدةً على راحتِك ، وإبعاد كلِّ شر يمكنُ أن يحيقَ بك .

قال : ياسيدتي ، إن سهماً نافذا قد أصاب صدري ، واستقرَّ في قلبي حين أبصرتُ سيدتك ؛ وأنا الآن جريحٌ معذبٌ ، وما شفاء جراحي إلا بيدها ، ولا مُضيِّعَ لعذابي إلا رضاها ، وقد أراد الله لي الرحمة إذ ساقك إليّ ، فالطريق إليها لا يكون إلا بعد إرشادك ، فها أنت تَرَين أنَّ مفتاحها في قبْضَتك ، وحلها في يدك .

فتصنعت القهرمانة الوجوم والدهشة والحيرة ، وبعد برهة قضتها في تفكير خالها أنس الوجود دهراً طويلا ، وعيناهُ عالقتان بشفتيها ، متلهفا إلى ما تنطق بهما ، وهل يكون حياة له أو موتاً .

تمتمت قائلة ، وكأنها تخاطب نفسها :

وأيمُ الحق ، إن الورد في الأكمام هي زينة النساء ، ولا يليق لها غيرُ أَنس الوجود سيد الشباب .

فبشت أسارير أَنس الوجود وأمَّل خيراً من وراء ذلك .

واستطردتْ المرأة تقولُ له بصوتٍ أكثر ارتفاعاً :

يا سيدي : إن أمنيتكَ هذه صعبة المنال ، ولكني سأعملُ جهدي من أجلك كما وعدتك ، فأبذل في إقناع سيدتي كل ما أستطيعه من بذل ، وأَحتالُ لذلك بشتى الطرق ، وأُغريها بأنواعِ المغريات ، وأَصفُ لها محاسنك ، وأَسْرُدُ لها صفاتك ، وأحكي لها أنباء شجاعتك ونخوتك

ورجولتك ، حتى إذا رأيتُ الطريقَ ممهداً سرتُ فيه رُوَيدا رُويدا نحو هدفك ؛ فما رأيك فى خطتى هـذه التى سأسلكها لأجـلك عن طيب خاطر ؟ .

قال فرحاً مستبشراً :

ونعم الخطة ، وبإذن الله بفضل مهارتك ودرايتك وحرصك وذكائك ستُكَلَّلُ بالنجاح ، وحينئذ أكافِئُكِ أنا بكلّ ما تشتهين ، وأهَبُ لك كلَّ ما تُحبين .

وشفعَ كلامه بأن أَخْرج من مِنْطقَتَه كيسَ نقودٍ وقدمهُ للقهرمانة ، وهو يقُول :

خُذى هذه هدية صغيرةً منى الآن ، ستعقبُها أُخرى أنفس منها إن شاء الله .

فتمنعتْ القهرمانة ، ولم تمد يدها إلى الكيس ، وقالت :

يا سيِّدى ؛ إن بُغيتى الوحيدة التى أَبْتَغيها هى راحتك وهناءةُ سيِّدتى. والرأىُ عندى أن تَكْتُبَ لها كلمة تضمنها حالك ، وتشرحُ فيها بُغيتَك ، وتبُثها إعجابك بها ، وتقديرك لجمالها ، وتصف ما فعله جمالها فى نفسك ، وما أحدثه سهمُ نظراتها فى قلبك ، حين وقع عليها نظرُك ، ثم ما أصابك من الشرود والسُّهوم عند ما فَزعَتْ فى مقصورتهـا ، وانصرفت . فإنها انْتزَعتْ معها قلبك ، وجرى فى أثرها عقلك وخيالك ، فلعلى أجدُ فرصة مناسبة أُقدِّمُ لها فيها الخطاب، بعد أن أُشْبِعَها حديثا عنك وأُهيِّئَ قلبها لك

قال : ها هى رسالة كتبتها قبل أن أراك ، ودبجتُها قبلَ أن أَعْلَمَ أَنه سيأتى إلىَّ من يساعِدنى على تحقيق حُلمى ، رسالَةٌ سَكَبْتُ فيها ذَوبَ نَفْسِى ، وخطَطْتُ بها من عُصارَة مُهْجَتِى .

وأخرجَ من بين طيات ملابسه التى تُلاَصِقَ صدره رسالةً مَطوية ، قبّلها ، ثم أَعْطاها للقهرمانة مع نفحة النقود التى نفحها إيَّاها .

فأخذتهما منه المرأة ، ودَسَّتْهُما فى صدرها ، وهى تقول :

اعتمد علىّ بعد الله فستنال ما تُريدُ .

فقال وهو يَضْحك مَسروراً :

إننى لا أَشكُّ فى مَقْدِرتك ، وأُوصيك أن تُحافظى على الرِّسالة ، ولا تدعيها تقعُ فى يدٍ أُخرى فتسوء العاقبة ، ونجازَى بما نكْرَه .

فقالت وهى تستديرُ للانصراف :

قلتُ لكَ اعتمد علىّ بعدَ الله ، فلا تخف ، وارجُ خيرًا ، ولا تستعجل ، فقد يكون مع المستعجل الزلل ، والإبطاء مع انتهاز الفرصة المواتية خيرٌ من العجلة التى قد تُنْتِج شرًّا ، ومع ذلك فلعلَّ الفرصة تُسعِفُنى على عَجَل ، وسأُوافيك بما يتم .

(٣)

وانصرفتْ القهرمانة من منزل أنس الوجود فرحة مغتبطة بتوفيقها .

وأنس الوجود يشيِّعها بنظراته ، متمنياً أن تعود على عجل ، تحملُ إليه

أخبارًا سارة تشرحُ صدره وتُبهجُ نفسه .

وبادرت القهرمانةُ حين دخولها عليْها بقولها :

يا سيدتى ، إنَّ لديه لك أضعافَ ما عندك له .

فقالت الورد فى الأكمام تتجاهل :

عمن تتكلمين ؟

أجابت القهرمانة : عن صَبٍّ مُدَلَّه، ومُتَيَّم مَفتْون .

قالت الورد فى الأكمام ، وهى تخفى اضطرابها ، ولكنّ احمرار وجهها ينم عما تعانيه : من تَعْنين ؟ !

قالت القهرمانة :

أعنى أنس الوجود : فخر الشباب ، وزينة الرِّجال .

قالت الورد فى الأكمام بصوت يتهدَّج :

وما بالُه ؟ !

قالت : أصابه سَهمٌ نافذٌ من سهامِك ، لانجاة له منهُ إلا أن تتداركيه بإسعافٍ سريع منك .

فاتخذت الورد فى الأكمام هيئة الغضبانة ، وقالت :

ما الذى تقصدين بهذا الكلام ؟

أجابت القهرمانة ، وهى تبتسم ، وتربت على كَتفها :

أقصد أن أجمع بينكما ، وأربطَ بين قلبيكُما ، وأَراكُما سعيدين هانئين فأسعدَ بسعادتكما ، وأهنأ بهناءتكما .

هدأت الورد فى الأكمام، وبدأ يتوارى عجبها، وتخفى دهشتها، وظهر عليها أنها تستجيبُ لعواطفها، نخفّت حدّة كلامها: وقالت. هل رأيته، وجالستِه، وتحدثتِ إليه، وتحدّث إليكِ، وسمعتِ منه ؟!

قالتْ: نعمْ؛ رأيته، وجالسته، وتحدثتُ إليه، وتحدّثَ إلىّ، وسمعَ منّى، وسمعتُ منه.

استوت الورد فى الأكمام جالسةً، وصارت كلُّ ذرّة من ذرّات جسمها أُذُناً مرهفةً تسمعُ وتعِى، وقالت:

بم حَدّثتِه؟ وبم حَدّثكِ؟ قُصّى علىّ ما جرى بينكما؛ وباللهِ عليكِ لا تُخفى عنى شيئاً.

قالتِ القهرمانة: لقد أغنانى ذكرى له أنى قهرمانتك عن كلِّ قولٍ، أمّا هو فإنه ما كادَ يعرفُ ذلك حتى ألانَ القولَ طلباً لعطفى، وتدرّجَ فى الحديث حتى طلبَ منى مساعدتى له على نَيلِ عطفِك، ثم أخرجَ هذا الكتابَ حيث كان يضمهُ ملاصقاً لصدره، وأعطانى إيّاه، لأعطيهُ لك، فهاكِ هو.

وناولت القهرمانة المكتوبَ للورد فى الأكمام، وهى تهمس لها: تكرّمى عليه يا بُنيّتى بكلمة يستردُّ بها روحه الهائمة، وعقلَه الشارد، فقد تيمّته، وسحَرْتِه، وملَكْتِ عليه قلبَه وعقلَه، فارحَمى شبابَه الغَض، وقلبه الوَلهان، ثم تركتها وانصرفت.

ونشرت الوردُ فى الأكمام الكتاب بيدٍ ترتَعش، وشرعت تقرأ

ما جاء فيه ، وكلما مرّت على سطرٍ منه ازدادتْ يدَها ارتعاشاً وقلبُها خفقاناً .

قرأتْ كلماتٍ من وحى القلب والرُّوح ، كلماتٍ عرَفتْ منها مبلغ هُيام كاتبها ، وشدَّة تباريح الهوى بهِ ، قرأتْ فيها أقصوصَةَ حُبٍّ عنيفٍ، يشتعل فى القلب ناراً ، ورأت فيها شُواظَ نفس مستعرةٍ ، معذبة تبغى الراحة وتطلب القرار .

وَرفعتِ الوردُ فى الأكمام الكتابَ إلى شفتَيها فلثَمتهُ ، والدُّموع تنحدرُ من عينيها ، وتحاولُ أن تُكفكفَ الدمعَ خشية أن تراها القهرمانة ، ولكنها طمأنت نفسها ، وقالت لافائدة فى الإخفاء ، فإنها أصبحت تعرفُ كلّ شيء ، فهى التى تواسينى وتسلِّينى ، وتتوجَّعُ لِى ، وتُعينُنى ؛ لا بأسَ ، إنها مُخْلِصةٌ وفيَّة .

ولما أتتِ القهرمانة بعد قليل تنشدُ الرّدَّ ، دسَّت الوردُ فى الأكمام يدَها تحت وِسادتها وأخرجت إليها الكتابَ الذى كانت قد كتبته من قبلُ ، تُسطِّر فيه رُوحَها ، وتنفِّس عن نفسِها ، قبل أن يأتيها كتابُ أنسِ الوجود ، وقبل أن تعرف شيئاً عن حُبِّه لها — فيما تزعُم — ودفعتهُ إليها .

حملَتِ القهرمانة الخطاب ، وأسرعت إلى أنس الوجود ، ودفعتهُ إليه ، ففضه فى لهفة ، وجرت عينه بين سُطوره تعبرُها عَبرا ؛ فكان لهذا الخطاب فى نفسِ أنس الوجود فعلٌ فاق فعل السحر ، أحسّ بنشوة الفرح والسرورِ تسرى فى جسمه ، فتستَخِفه وتُنعشه ، وشعرَ أنه قد

غدا أسعدَ إنسانٍ ، وأنهُ قد خُلق خلقاً جديداً ، وبدت الدنيا من حوله حُلوةً بهجةً ، كلُّ شيءٍ فيها جميلٌ ، وكأنما كلُّ شيءٍ يشاركه فى سُروره : فتغريدُ الطير ، وحفيفُ الشجر ، وخرير الماء أغاريدُ وترنيماتٌ عذبةٌ ، تعبِّر بها الطبيعةُ عن احتفالها بأُنسه وسروره ، وتفتُّح الزهرِ ، وتراقُص الأغصان ، وتبخترُ النسيم ، وتواثُبُ العصافير على الأفنان — ابتهاجٌ بما أتاح الله له من حظٍّ سعيد خُيِّلَ له أن هذا كلَّه ليس إلاَّ له ، ولم يخلقه الله إلا من أجلِ حُبِّه .

وفى فورة هذه الرُّوح كتب إليْها ردًّا يفيض حُبًّا ، كلُّه أملٌ ، وكلُّه تصويرٌ لما يتوقعُ لنفسه من سعادةٍ ونعيم .

وحملت إليها القهرمانة هذا الردَّ فأثَّر فى نفسها كما أثَّر خطابها فى نفسه ، وتصوَّرت الدنيا بهجةً وجمالاً كما تصوَّرَها هو بهجةً وجمالاً ، وكتبت إليه كتاباً تَرُدُّ به على كتابه ، وحملته القهرمانة مسرعةً ، فاعترضَ طريقها حارسُ باب الحريم ، وقال لها :

ما بالكِ فى هذين اليومين تُكثرين من الدخول والخروج ، وألْمَحُ فى وَجْهك شيئاً من الاضطراب الذى يَدُل على شىءٍ خفى تكتمينه فى نفسك ، ومن حقِّ أن أعترض طريقَك ، وأسألكِ .

فاضطربتْ المرأة ، وظنت أنه قد لحظ شيئاً أو ألمَّ بخبر ، فدست فى خفية من الحارس الخطاب الذى كان بيدها بسرعةٍ بين طيات ملابسها ، وقالت فى تلعثم واضطرابٍ حاولت أن تخفيه :

إنى قاصدةٌ إلى الحمّام .

فلم يفطن الحارس إلى اضطرابها ، وإلى تلعثُمِها ، وأفسح لها الطريق ، فما سارت إلا بضع خطواتٍ حتى انفلت الخطاب من بين ملابسها وسقط على أرض البستان .

ومَرّ بعد ذلك واحدٌ من خدم الدار ، فرأى الخطاب فحمله مطويًّا إلى سيِّده الذى كان يتنزه فى البستان قائلاً :

ياسيدى ، لقد وجدتُ هذه الورقةَ ملقاةً على الأرضِ .

فأخذَها منه سيِّدُه الوزيرُ ، ونشرها ، وقرأها ، فأدرك ما جاء فيها ، فتأمَّل الخطَّ الذى كتبت به ، فعرَف فيه خطَّ ابنته ؛ فجُنَّ جُنونُه ، وأظلمتِ الدُّنيا أمامَ عينيه ، وضاقت على سعتِها ، ودارت به الأرض الفضاء ، وسخُنَ وجهُه ، وصعدت الدِّماءُ إلى رأسه ، وكان يتميَّزُ من الغيظ ، وعَضَّ على نواجذهِ ، وزفَرَ زَفْرَةً شديدةً ، اختلفتْ لها أعضاؤه ، وكاد ينخلع منها قلبُه .

وبعدَ وقتٍ مَلكَ نفسَه ، وتحامل عليها ، وأخذَ عَصاً توكَّأَ عليها ، وصعدَ إلى مَخْدعَهِ ، محاولاً أن يخفِىَ ذلك الأمرَ ، حتى لا يقف عليه أحد من خدمِهِ وحشمِهِ ، ودخَلت عليه زوجَتُه ، فوجدَت الدموعَ قد خدَّت وجنَتَيه ، وغسلَت لحيته ؛ فسألته جزِعةً مُرْتاعةً :

ما بالك يا سيِّدى تبكى ؟ ! ما بِك ؟ ! من مات من أحبابنا ؟ ! ماذا أصاب الدولة ؟ ! ما ذا دهى الملك ؟ !

فأشارَ لها إلى الخطاب وهو صامتٌ، فأخذته، ونظرتْ فيه، فعرَفتْ فيه خَطَّ ابنتِها، ونفذَ إلى أنفها شذَى عطْرها، فتوجَّست شرًّا، وعرفت أنَّ فى الأمر سرًّا، ولما قرأَته صدق حدسها، وغلبها البكاء كما غلب زوجها، ولكنَّها تجلدت، وكفكفت دمُوعها، وقالت لزوجها:

يا سيدِّى، إن البكاء لا فائدة فيه، ولا مغنم من ورائه. والرأى الصَّواب أن نَتَبَصَّرَ فى أمرٍ يكونُ فيه الحفظ لشرفنا، والصونُ لكرامتنا، وإنقاذ ابنتنا مما توشك أنْ تقع فيه.

وأخذتْ تخفِّفُ عنه حزنه، وتسَلِّيه بذكْر الأحداث والعبر، حتى سُرِّى عنهُ بعض ما به، وقال لَها:

إنَّ ما يحزننى أنْ يصدر هـذا عن ابنتى، التى رَبَّيْتها عَلَى الخصال الحميدة، والسَّجَايا الطَّيِّبة، وتعَهَّدتها بخير ما يتعَهَّدُ به أبٌ ولده.

قالت: لا تَبْتَئس، فلكلّ جُرح علاجٌ، ولكلِّ مرضٍ دواء.

قال وهو يهزّ رأْسه يائساً: إنهـا تراسل أُنس الوجود، فأين العلاجُ؟!، وما هو الدَّواء؟! هى ابنتى، وهو حبيبُ السلطان المقرب إليه، الذى يؤلمهُ بعاده، ولا صبر له على غيابه.

قالت: اصبر حتى أَتوضَّأَ، وأُصَلى ركَعتَين استخارةً لله، وسيُلهمنى الله الرأى الصواب.

ونهضتْ من فوْرها فتوضَّأت وصَلَّتْ، ثم أتت لزوْجها، وقالت له: إن فى وسط بحر الكنوز جبلاً يسمى جبل الثكلى، وهـذا الجبلُ

لا يصلُ إليه المرءُ إلا بعد تعب ومشقة ، فأقِمْ لها مكانا هناك تقيم فيه ، وبذلك يُقطعُ ما بينها وبين أنس الوجود قطعاً ، ونأمن نحن على ابنتنا ، ونصون شرفنا وكرامتنا .

فسرَّ الوزيرُ من رأى امرأته ، وقضى الليل معها يرسُمان الخطط فيما يفعلان وينتهجان .

فلما أصبحَ الصباح جمع نفرًا كبيرًا من المهندسين والبنَّائين والنجَّارين والعمال، وانتقل إلى بحر الكنُوز ، ونقل معه كلَّ ما أعد ، واستقلَّ مركباً مُحَمّلا بكلِّ ما يَلْزَمُ لصناعة البناء ، واتجهوا جميعاً إلى جبل الثَّكلى ، وقام العملُ على قَدَم وساق فى بناء قصرٍ منيع فوق رَبوة هذا الجبل الذى يحيط به البحر من جميع الجهاتِ ، فما مضى إلا قليلٌ حتى كان القصر قد شُيِّد ، وأعدَّ بكل ما يحتاج إليه المقيم فيه من أَثاث ورياش ، واستعدَّ لاستقبال الفتاة التى ستنفى إليه .

أما الورد فى الأكمام فقد لازمتها أمها فى هذه الفترة ليلا ونهاراً ، تراقبها وتحصى عليها حركاتها وترقب سكناتها ، إلى أن أتت ليلة الرحيل .

وكانت الورد فى الأكمام قد أَحست أن أَمْرَها قد كشفَ ، وقدَّرت أنَّ أباها سيحدثُ أمْرا ، وأعدَّتْ نفسها لتلقِّى الخطوب والمحن .

فلما كانت الليلة التى حُدِّدتْ لترحيلها ، أتاها أبوها بعد أن مضى الهزيعُ الأوَّل من الليل ، وسكَن الناسُ وأووْا إلى بيوتهم ، وأمرَها أنْ تسير معه وتتبعه .

فتبعته حتى خرج بها من الدار ، فرأت أمام الباب الرَّكائب والأحمال مهيأة للسَّفر ، ورأت الخدم فى هَرْج ومَرْج ، يذهبون ويجيئون ، ينفذون أوامر سيدهم ، فعرفتْ أن المكان الذى ستحمْل إليه ناءٍ بعيدٍ ، ففاضت الدموع من عينيها ، ثم انخرطت فى بكاءٍ شديدٍ .

وسمعت صوت أبيها يصْدِر الأوامر متعجلا نزول الجوارى والخدم الذّين سيرافقونها، فاستندتْ إلى جدار الباب ، وخطت على حائطه أبياتاً من الشعر الباكى الحزين تودِّعُ فيهاَ الحبيب والأهل والدَّار .

وسرعان ما حُملتْ الأحمال، واتخذ المسافرون أمْكنتهم، وشُدَّت الرِّحال.

وسارت هذه القافلة تُغذّ السيرَ فى جَوْفِ الليل ، حتى إذا ماَ انبلج نور الصَّباح كانت تعلو الكُثْبان ، وتهبط الوديان ، فى صحراء قاحلة جَدْباء لا زرع فيها ولا ماء .

وأخيراً وصلَ الركبُ إلى بحر الكنوز ، فحطُّوا رحالهم ، ونصبوا خيامهم ، وأنْزَلوا أمْتعتهم ، واستراحوا ليلةً فى مكانهم هذا حتى إذا كانَ الصَّباح استقلوا مَرْكباً كان فى انتظارهم وقصدوا إلى جبلِ الثكلى الذى شيد فوقهُ القصر .

فلما وصلوا إلى القصر استقبلَهم نفرٌ من الحرَّاس كانوا به ، وأدخلوا الورد فى الأكمام هى وجواريها وخدمها إليه ، ثم كرُّوا هم ومنْ أتى مع الورد فى الأكمام من حرَّاس عائدين ، وعندما رسابهم المركب عَلَى اليابسة أثناء أوْبتهم نزلوا منه ، وحطموه ، كما أمرهم الوزير ، ثم استأنفوا الرحيل تذوب أنفسهم حسرة على ما فعلوه .

ودَخلت الورد فى الأكمام القصر فوَجَدَتْه رائع البناء ، جميلُ التَّنْسيق ، إلا أنَّها لم تُلْقِ بالاً إلى ذلك كله فقد كانت منصرفة إلى أحزانها وأَشجانها مُسْتَسْلِمة لهمهَا الذى بَدَأَ يُحَطِّمُ قلْبها .

(٤)

أما أَنس الوجود فإنه كان قد علم بضياع الورقة ، لما أَتت إليه القهرمانة لتعطيها له فلم تجدها ، وظل بعد ذلك يترقبُ مجيئَها ، أو يَسْمَعُ خبراً مِنْها ولكنَّها لم تَعُدْ إليه ، فبدأ يُساوِرُه القلَقُ ، ويَدْخُلُ نَفْسَه شئ .

فلَمَّا كان صباحَ يوم رحيل الورد فى الأكمام مَرَّ على قصر الوزير كعادته فى طريقه إلى قصر السُّلطان ، وأخذ يُرَدِّدُ طَرْفه نحو البُسْتَان ويختلسُ النظرات نحو النوافذِ والشُّرفاتِ ، لَعلَّه يَرَى القَهْرَمَانة ، أو يلمح الورد فى الأكمام أو يَشْتَم رائحة خبر :

فلما حاذى الباب لمحتْ عينه الكتابة المخطُوطة على حائطه ، فعرف من فوْره فيها خطَّ حبيبته الورد فى الأكمام ، فاقترب منْها ، وقَرَأَها ، فعلم ما لم يكنْ يعلم .

علم أَن يد النَّوَىَ قد فرَّقت بينه وبين حبيبته ، وأَن الشُّقَّةِ قد اتسعت وأن المزار بعيد ، فتَسمَّرتْ قدماهُ ، وظلَّ شاخصاً بعينَيه إلى أَبيات الشعر التى خطَّتها له الورد فى الأكمام قبل رحيلها ، وهى تتراقص أمام

عينيه ، وقد جف ريقه ، وَوَجف قلبه ، وزاغَتْ عيناهُ ، وتخاذلت قُواه ، وشده عقله .

وفطنَ بعد وقتٍ ليسَ بالقصير إلى حاله ، وإلى أنه موضع تهامُس ، وتعجُّبٍ ، وتساؤُل وارتياب ؛ فتحوَّلَ يريدُ الانصرافَ ، فلم تطاوِعْه قدَمُه ، فقد ثقلَت واسترْخَت ، وكأنَّها قد شُدَّت إلى الأرض بأمْراس . فجاهد حتى اقتلعها من الأرضِ اقتلاعاً ، وعاد يجُر نفسه ثانياً إلى داره ، حيث سقط متهالكاً ، كأنما أصابتهُ غشية .

ولمَّا أفاقَ قليلاً ، قرّ قرارُه على أن يقتفى أثر الوردِ فى الأكمام باحثاً عنها حتى يجدَها ، أو يلقى دُونها الموتَ .

فشَدَّد عزمَهُ ، وشجَّع نفسه ، وقوَّى قلبه ، ونهض يستعدُّ لهذا الأمْر .

وفى دُجَى اللَّيلِ تسلَّلَ من داره متخفِّياً متنكِّراً فى زىٍّ غيرِ زيِّه فصار تنكِرُه العينُ التى تعرفه .

وقضى الليلَ فى سيْرٍ متواصلٍ ؛ فلما أصبحَ الصباحُ كان قد قطعَ مرحلةً واسعةً خارج المدينة ، وواصل السيرَ حتى اشتدّ وهَجُ الهجيرِ عليه ، فدارَ بعينِه يبحثُ عن ظلّةٍ يستظلُّ بها ، ويستريح فيها بعضَ الوقتِ ، فلم تطالع عينُه غيرَ صحراءَ ورمالٍ تلهبُها شمسٌ حاميةٌ محرقةٌ .

ولم يجد بُدا من أن يواصل سيرَه رغمَ تَعبِه وإجهاده ، وجُوعِه وعَطشه حتى مالَ النهار ، وانحدرت الشمسُ ، وحينئذٍ تراءى أمامَ

عينيه اللتين أعْشاهما بريقُ الشمس شيءٌ يتراقصُ ويميلُ ويهتزُّ ، فيمَّم نحوه فوجدهُ شجرَةً وبضع نخلاتٍ يجرى بجانبها جدْوَلُ ماءٍ ؛ فمال إلى الماء يطفئُ منهُ عطشه ، ولكنهُ لم يجدْ لهُ فى فمه طعماً ، ولا فى حلقه رِيّاً ، فأخرجَ شيئاً من الطعام القليل الذى يحمِلُه معهُ ، فلم يجدْ لهُ من نفسِه قبولاً ولا شهِيَّةً .

وقضَى جُزْءاً من الليل فى هذا المكان ، ثم نهضَ يستأنفُ سيره تحت سِتار الظلام الذى لا يُنيرُه لهُ غيرُ بصيص ضئيلٍ من نور الكواكب والنُّجوم يهْتدِى به ، وشُعاع الأمل ينبعثُ من صدْره فيخلعُ على نفسِهِ صورةً من الإلهام مضطربةً ؛ إلاَّ أن ضوءها يَغلبُ على ظلامها .

انْقضى الليلُ بظلامِهِ ووَحشتِه وأوْهامِه ، واختفتِ النجومُ فى خضَمٍّ من نور الصباح ، وظهرت الشمسُ مشرقةً ، فأرشدته بنورها ، وأَحيتْهُ بحرارتها ، ثم أصلتهُ بعد ذلك شُواظاً ، ولفحته لفحاً يسفعُ الوجهَ ، ويشوى الجلد ، ويُصَبِّبُ العرَق .

وبينما هُو يُعانى الألمَ فى قدَميه ، والثُّقلَ فى جِسمه ، ووقدَةَ الشمس فوق رأسِه — إذْ بهِ وجْهاً لوجْه أمامَ أسَدٍ ضَارٍ ما رأت عينُه أكبر منهُ ، ولا أوْفَرَ لُبْدَة ، ولا أبْشَعَ شكلاً ، ولا أَحَدَّ ولا أضرَى .

وأيقَن أنسُ الوجودِ أن الموتَ أدركه ، فلا نجاة منهُ ولا مفر ، ولا شجاعةَ تجديه ، ولا حيلة .

فوقف في مكانه ينظر إلى الأسد مُرْتعِدًا خائفاً ، يترقَّبُ وثْبَتَه بين لحظة ولحظة ؛ والأسد ينظر إليه كأنه يتربص به ، ويتجمع للوثوب عليه ؛ ولما طال الوقتُ على أنس الوجود ، والأسدُ لا يتقدمُ للهجوم عليه وافتراسه ، سَرَى عنه بعض ما به من الخوف ، ومَلَكَ أعصابه ، وتَنَبَّه لنفْسِه ، وقال يُخاطبه :

تقدَّم يا أبا الحارث ، فأرحْني من عَذابي ، وانْتَشِلْني من شَقائي ؛ فإنك إن أنْشَبتَ مخالبك في قَلْبي ، ومَكَّنْتَ لأَنْيابك من عُنُقي — أرحْتَني من تلكَ الحياة المظلمة ، وخلَّصْتني من حَظ نكد بائس ؛ ولَعَلِّي إن أَمُتْ أجد ورَاء هذه الحياةِ حياة أسعد وأرْغدَ ، لا يظلِمُ فيها أحدٌ أحدًا ، ولا يعتدي أحدٌ على أحد ، ولعلي إنْ أَمُت أَجد ورَاء هـذه الحياة حياةً يحترمُ فيها بعضُ الناس بعضا ، ويقدِّرونَ عواطفهم ، فلا تحاسُد ولا تباغُض ، ولا تنافُس في شرٍّ أو إلى شر .

تقدم يا أبا الحارث فأرحني من عَذابي، وانتشلني من شقائي .

وكم كان عجيباً حين رأى أنس الوجود الأسد حين سمع كلامه أقعى ، ولم يتقدم نحوه ، ولم يهجم عليه ؛ فكأنه فهم كلامه ، فرثى لحاله ، وجلس يتأمله .

فقال : أيا سبع الغابة ، ويا ليث العرين ؛ هلْ أجدُ الرَّحمة منك ، والأمان عندك بعد أن لم أجدهما من بني جنسي ؟ !

وازداد عَجبُ أنس الوجود حين أبْصَر الأسد ينهض متمهِّلاً

وهو يُبَصْبِصُ بذنبه ، ثم يسيرُ أمامه وينظر إليه كأنه يطلب منه أن يَتْبَعه .

فتبعه أنس الوجود ، وهو يسائل نفسه : يا ترى ما هو مصيرى مع هذا الأسد المخيف الوديع ؟ !

وسار الأسد وأنس الوجود فى أثره ، فصعد به فوق ربوة عالية ، ثم هبطا منها ، فإذا أمام أنس الوجود آثارٌ حديثة لأقدام ومناخُ جمال ، وسنابكُ خيلٍ رائحةٍ وغاديةٍ ، فعرف أن هذا هو الطّريق الذى طرقه القومُ المسافرون بالورد فى الأكام ؛ ففرح باهتدائه إلى هذا الأثر ، وعزم على تتبعه .

أما الأسد فإنه بعد أن أحسّ أن صاحبه اهتدى بالأثر كرّ راجعاً من حيث أتى .

أما أنس الوجود فإنه لم يكد يرى الأسد راجعاً حتى ينظر إليه ، ويتبعه نظراته ، كأنه يريد أن يتشكّره على ما قدّم إليه من جميل لم يقدمه إليه إنسان ، ولكنّه انعقد لسانه من شدة دهشته ، وفرط عُجْبه ؛ ولم يزد على أن قال : يظلمونك يوم يتحدثون عنك ، ويذكرون أنك حيوان مفترس ظالم غادر ، ولو أنصفوك من أنفسهم لكانوا هم الظالمين الغادرين ، الذين يفترسون بألسنتهم ، وخداعهم ومكرهم ؛ ولكنت أنت الوديع الوفى الأمين ؛ فهيهات هيهات ! !

وسار أنس الوجود يقُصُّ الأثر ، ويقتفى المعالم التى رآها ويتبعها .

وطال به السيرُ أياماً وهو لا يمل من اقتفاء الأثر ، ثم انتهى به المسير بأن أشرف على بحر عَجّاج وعلى شاطئه انتهى ذلك الأثر .

ووجَم أنس الوجود وتولّاهُ الذهولُ لأنّ الأثر انتهى ها هنا ، فهل أغرقت الوردُ فى الأكمام فى البحر ؟ !

لعل القلوبَ المتحجرة فعلت هذا ؟ وهل أتم القومُ رحلتهم بطريق البحر ؟ ! فأين الورد فى الأكمام ؟ ! وأين ذهبوا بها ؟ !

أأكونُ قد قطعت هذه الفيافى ،واجتزت هذه القفار ، بجسدٍ مكدود ، وأقدام دامية ، لأتلقّى هذه الضربة القاصمة ؟ ! وأنتهى إلى هذه النهاية ؟ ! ماذا أفعلُ ؟ ! وإلى أين أتجه يا رباه ؟ !

ولم يتمالك من أن ينفجر مجهشاً بالبكاء ، بعد أن فقد الأمل ، وانقطع أمامه الرّجاء ، فقد ضعفت نفسه . ووهنت عزيمتهُ ، بعد التجلد والصبر والكفاح .

وارتمى على شاطئ البحر يعتلجُ فى صدره همٌ شديدٌ ، فيبث الأمواج لواعجه ، وينثر عليها همومه وأحزانه ، ويسكبُ عبراته ، يناجى الحبيبة التى تفصلُ بينه وبينها لججٌ صاخبة ، فلا يعرف لها مقرا ولا مُقاما ، ولا يعرف : أهى بين الأحياء فيناديها ، أم هى بين الأموات فيناجيها ؟ ! ثم يندُب حظه العاثر ، ويبكى أمله المفقود ، فكأنه يهذِى هذيان المحموم .

وانحدر قرص الشمس ثم غاب ، وأنس الوجود جاثم فى مكانه

لا يشعرُ بالوقتْ ولا بمروره عليه . وأخيراً انتبه من غَشْيته ، وصحا من هَذَيانه ، فروَّعته رهبة المكان ووحشته وهو وَحيدٌ بين صخورٍ ورمالٍ ، وبحرٌ يهدر مزمجرًا تارة ، ومُقَهقهًا تارة أُخرى ، وخُيِّلَ إليه أن هذا البحر الذى غَيَّب عنهُ حبيبته فى جَوْفه أو عَلَى ظهْره ينُوح لحاله باكيًا ، ثم تراءى له أنه يَضْحك منهُ ساخراً .

يا لله ! ! إنه سيُجَن ! ! ما باله الليلة يشعر بالوحشة ، ويحس الوحدة ، وقد قضى الليالى من قبلُ فى الفَلاة وَحيدًا لا يُؤنسه أنيس — آه — لقد كان هناك من يؤنِسُه ويَرُد وحْشَته ؛ كانت نفسه عامرةً بالأمَل ، وروحه مُفْعَمة بالرّجاء .

نظر إلى جانبه فرأى الصخور ترتفعُ وتتعالى ، ومن خلفها يشْمخُ جبلٌ عالٍ ، فخطر بباله أن يلجأ إلى مأوى بهذا الجبل يُؤْويه حتى الصباح .

فارتَقى الصخورَ ، ثم شرع يَصْعَد مرتَقى الجبل ، فأبصر فجوة تُشْبه المغارَة فيمَّم نحوها .

وما كان أشدَّ دهشته حين وَجد لهذه المغارة بابًا ، فوقفَ أمامَ الباب يتسمَّع ، فسمع من داخلها صوتًا ! !

وشعر بخوف ، وشعر بإيناس . خوفٍ من شكِّه فى أن يَسْكُن إنسانٌ هذا المكان المنقطع المنعزل الموحش . وإيناسٌ لأمله أن يكون هذا صوت إنسان يسائله ويحاوبه ، ويبادله القول ، فلعلَّ حظًّا تعسًا أتى به فى هذا المكان ، فيجمعُ بينهما البؤس والشقاء .

فتقدّمَ من باب المغارة كى يطرقه ، فتَرُدُّه الهيبة ، وتدْفَعهُ الرّغبة . ولكنه طرقه طرقاً خفيفاً فلم يَرُد على طَرْقه أحَدٌ . وسمع من داخل المغارة الصوتَ مازال يَتَرَدَّد . فأنصت يتسمع ، وأرهف أذنه إرهافاً شديداً ، وألْصقها بثقب صغير فى الباب ؛ فإذا هو يَسْمعُ صوتَ قارئٍ يُصَلى ويتعبد .

فتنبه ؛ وأدركَ أن هذه المغارة التى أمامه ليست إلا صَوْمعة ، يعتصم بها عابدٌ من عُباد الله الزّاهدين فى الدُّنيا ، الرّاغبين فى الآخرة ، ويتخذُ منها مكاناً ينقطعُ فيه عن النّاس ، ويتخلّصُ بعضَ الوقت من شرُورهم وآثامهم ، ويُخْلِصُ إلى الله .

فاطمأنّ ، وارْتاحَتْ نفسه ، وعاوَدَ الطّرقَ مثنى وثُلاَث ، ولكنه لم يُجبه مجيبٌ ، فعاَدَ الاكتئابُ إلى نفسه ، واليأسُ إلى قَلْبه ، وجلس على باب المغارة يَبْكى ويندبَ حظّه العاثر .

وبينما هُو غارِق فى همه وحُزْنه ، رأى باب المغارة قد فتح فجأةً ، وسمع صوتا من وَرائه يقول :

وارحمتاه ! ! منْ أنتْ يا فَتَى ؟ !

فنهض أنس الوجود ، وحيَّا الشخص الذى لاح له من خَلْفِ الباب . فردّ عليه التحية بأحسن منها ، ودَعاه إلى الدخول ، ثم قال له :

ما اسمك يا بُنى ؟ ! ومن أين جئت ؟ ! فأجاب أنس الوجود :

اسمى أنسُ الوجود ، أما مجيئى فله قصة طويلة عجيبةٌ .

فقال الرّجل :

لا بأس عليك ! استرح الآن مما أنت فيه من تعبَ ونصب . ثم أتى له بماء وتمر ، ودَعاه للطَّعام .

فلما استراح أنس الوجود قليلا ، وتناول الطعام الذى قُدِّم إليه ، شرع يقصُّ على العابد قصته .

ولما انتهى منها وهُو يبكى ، كان العابدُ كذَلك يبكى لبُكائه . ثم قال له :

حقًّا يا بنى ؛ لقد انقطع أثر من تعقبت آثارهم على هذا الشاطئ ، فإنهم ركبوا البحر ؛ لقد مكثتُ فى هذا المكان عشرين عاماً ، فما رأيت أحدًا يطرقه إلا فى هذه الأيام . ومن بضعة أيام سمعتُ هرْجا ومرجا ، وصوتَ بكاء ، فخرجتُ من مغارتى ، ونظرت نحو الشاطئ فرأيت قوماً مخيمين به ، ثم استقلوا مركبًا وغابوا به فى البحر . ثم لم يلبثوا أن عادوا ، وحطموا المركب وانصرفوا . ولم آبه أنا لهذا التصرف ، ولم أفقه له وقتئذ معنى ، ولكن أظنُّنى الآن قد عرفْتُ السر .

فسأله أنس الوجود متلهفاً :

وما هو السِّر ؟ ! وما سبب تحطيم المركب ؟ ! فإن ظَنَّ العابد يقينُ غيره .

أجابَ العابدُ : لا أعرف إن كان ما ظننته صحيحاً أو غير صحيح ، فإن علم ذلك عند الله ، ولكنه ترْجيحٌ واجتهادٌ ، والمجتهدُ قد يُخطئُ وقد يُصيب .

فقال أنس الوجود :

بربك أَخْبِرْنى ما هو هذا الخاطر الذى خَطَر لكَ ؟

أجاب :

أُرجحُ أن الفتاة التى تعنيها قد ذَهبوا بها إلى جزيرة فى وسَط هذا البحر ، وبهذه الجزيرة جَبَلٌ يُسمَّى جبلَ الثَّكْلى ، وأنهم قد تركوها هُناك فى مكانٍ أقاموه لها ، ثم عادوا وحطموا المركب حتى لا يمكنَ أحد الذهابُ إليها .

عند ما سمعَ أنس الوجود هـذا القولَ من العابد علا بكاؤه ، وازداد نشيجهُ ، حتى كادت مرارتَهُ أن تنفطر ، والعابدُ يُرَبِّتُ عليه ، ويواسيه ، قائلاً :

لا تيئسْ يا بُنى من رحمة الله ؛ إن بعدَ العسر يُسْراً .

فقال أنس الوجود وهو يَشرقُ بدموعه :

إننى لا أجدُ أمامى إلا ظلاماً حالـكا ، ويأساً قاتلا .

فقال العابد :

لا تجعل يا بنىَّ لليأس طريقاً إلى قلبك . اعتمد على الله فهو مُفرِّجُ الـكروب ، وتوكَّل عليه فهو مُيسِّرُ الأمُور .

قال :

ما ذا أفعل ؟ ! وإلى أين أتجه ؟ ! أرشدنى يا سيِّدى بربك ، وأَرِنْ لى سَبيلى أثابَك الله ؛ فإن الدنيا على سعتها ضاقت فى وجْهى ، وأصبحتْ

أضيقَ من كِفةِ الحابل؛ فحيثما تلفّتُّ لا أجِدُ إلا ظَلاماً مُؤيساً.

فقال العابد:

نَمْ أنت الآنَ لتستريحَ، وتستردَّ قُوَاكَ، وسأقوم أنا للصلاة والدُّعاء من أجْلك، عسى الله أن يُلهمنى الرأىَ السديدَ، ويوفِّقنى إلى طريق الرّشاد، ومن يرجُ اللهَ لا يخِبْ رجاؤه، ومن يتوكَّل عليه فهو حسبُه.

فامتثل أنسُ الوجود لأمرِ العابد، ورقد مُفوِّضاً أمرَه لله.

فلمّا كان الصباحُ قال أنس الوجود للعابد:

ماذا دَبَّرتَ لِي يا سَيِّدى كى أَبْلُغَ أَرَبى؟! فإنى لا صَبرَ لى على هذا الأمْر، ولا راحةَ لِى إن لم أُنقِذ من سَبَّبَت لها هذا الشقاء، وتلك الوَحدةَ المُمِضَّةَ القاتلة.

فأجابَ العابد:

أما وهذه رغْبَتُك التى لا تحيدُ عنها، فانزِل إلى الوادِى، وأْتِنِى بليفٍ من ألْيافِ النخيل، والله يُعينُنا على النظرِ فى أمرٍ يُبلِّغك مُرادَك.

فأطاعَ أنسُ الوجود، ونزَل إلى الوادِى، وجمَعَ كثيراً من اللِّيف، وأتى به إلى العابد.

فأخذَه منه، وعكَف عليه طولَ يومِه يبْرمه حبالاً، ثم صنعَ من هذهِ الحِبالِ طُنُفاً كبيراً متصلَ الجدَلاتِ، مُوثَقَ الحَلقات.

وفى اليوم الثانى صَحِبَ أنس الوجودِ إلى الوادِى، وجمعَ له قرعاً جافًّا كان يملأُ جوف الوادى، وملأَ به الطُّنُفَ ثم أقفَلَ عليه.

وقال لأنس الوجود :

ها قد صنعتُ لكَ قارِباً مَليحاً .

ثم سَحبَ الطُّنُفَ ، وألقاه فى البَحر ، وأَنزلَ فيه أنس الوجود ، وزوَّدَه ببعضِ الزاد ، وقال له :

اعتلِ هذا الطُّنف ، وسر به فى البحر ، واللهُ معك يُمينُك على بلوغ مقصدِك ، وسأُصلِّى لله ، وأَدعُو لكَ ، عسى اللهُ أن يأْتىَ بالْفتح أو أمرٍ من عِنده .

فقال أنس الوجود :

يا سيِّدى إن لسانى ليعْجَزُ عن شكرك ، وإنَّ جَنانِى ليقصُر عن الاعتراف بفضلك .

ثم ودَّعَ العابدَ ، واعْتَلَى الطُّنُف ؛ فدفعه به العابدُ إلى البحر ، وهو يقول :

سِر على بركَة الله ، فما َبلغ أَحدٌ مُرادَهُ إلاَّ بالسَّعْىِ ، ومن لم يُخاطر بنفسِه لا ينال هدفَه .

وأَتتْ ريحٌ فطوَّحت بالطُّنفِ وراكبه إلى عرْضِ البحر ، وما زالتْ تدْفعه الأمواجُ حتى غابَ عن عينِ العابد .

وقضى أنسُ الوجود فى رحلته ، أو محْنته ، هذه ثلاثةَ أيام قاسَى فيها الأمرَّين ، ونالَ منه التَّعبُ كل مَنال . أخذت الأمواجُ تُرَجِّحهُ تارةً ، وتداعِبهُ طوْراً . تقذفه موجةٌ ، لِتتلقَّفهُ موجة ، وترفعُه لجَّةٌ

وتخفضه لُجة، ويدفعهُ تيارُ الماء ويردُّه اتجاهُ الهواء؛ ظلّ على ذلك وقتاً. ثم صخِبَ البحرُ وهدر، فكان يَقلبه ظهراً لبَطْن حتى أضناهُ بين لججِهِ وأمواجه، وأذاقه من عذابه وأهواله ما لا قِبَلَ له باحتماله، وأراه المَوتَ مرّاتٍ تلوَ مراتٍ فى أعاصيره وأنوائِه، وهو متشبِّث به تشبُّثَ الحريص على حياتِهِ؛ وبعد لأىٍ أدركته رحمةُ الله، وقذف به إلى الجزيرة التى ينشُدُها. فنزلَ إلى البرِّ مثلَ الفرْخ الدّائخ، لا يقوى على السَّير أو الحركة.

وظلّ على هذه الحالة زمناً ليس بالقصير، ثم استطاع أن يستجمع قواه، وينهضَ على قدميه، ويسيرَ فى أَرجاء الجزيرة، لعلَّه يجدُ مَخْرجاً.

جَال أنس الوُجود بالجزيرة جولة قصيرةً، فوجَدها جزيرةً ذاتَ أرضٍ خصبةٍ، فيها أنهارٌ جاريةٌ، وأشجارٌ مثمرةٌ، وأطيارٌ مغرِّدة، ورَأى فى وسَطِها ربْوةً عاليةً، يلوحُ من فوقها شىءٌ أبيضُ ناصعُ البياض، ما إن رآه حتى أدرك أنه لا بد أن يكونَ هو المُعتَقل الذى حُمِلَت إليه الوردُ فى الأكمام.

فلم يتوان عن ارتقاء الربوة إلاّ ريثما التقط بعضَ ثمراتٍ يتبلغُ بها، وصعِدَ على الرَّبوةِ بهمّةٍ ونشاطٍ لم يكُن ينتظرهما من نفسه بعد أن قاسى ما قاسى من مشاقّ وأهوال.

وبعد برهةٍ كان يجول حول قصرٍ صغيرٍ منيعٍ، يمتدُّ أمامَه على مدى البصر متّسَعٌ فسيحٌ يشبهُ البستانَ، مَسوّرٌ بسورٍ عالٍ؛ فطافَ حوله

يختبرُ منافذَه حتى عَثَر بالبابِ ، فوجَده مُقفلاً محكمَ الإقفال . فربض أمامَه ينتظرُ ما يتأتَّى من الأحداث .

وبعد أيامٍ ثلاث فُتِحَ البابُ ، وظهرَ من وَرائِهِ أحدُ الخدم ، وما إن رأى أنسَ الوجود جاثِمًا بالباب بثيابه الرَّثَّة ، وسحنتِهِ المغْبرّة ، حتى بُهتَ ومَلكَ عليه العجبُ كلَّ حَواسِّه ، وقالَ لهُ :

يا هذا ؛ منْ أنت ؟ ! ومَنْ أَتَى بك إلى هُنا ؟ ! إنسٌ أنت أم جِنى ؟! خَرجتَ من الأَرض أو هبطْتَ من السماء ؟ !

فأجابه أنسُ الوجود :

إنى رجلٌ من أصْبهان ، وكنتُ مسافِرًا بتجارة فى البحر ؛ فانكسرَ المركبُ الذى كنتُ فيه ، وقذفتنى الأمواجُ بعد أن أشرفتُ على الموتِ إلى هذه الجزيرة ؛ فهل أجدُ عندكم مأوىً آوى إليه ، حتى يهيئ اللهُ لى فرصة العودة إلى بلدى ؟

فتقدَّم الخادمُ من أنس الوجود وعانقه وقبَّله وهو يبكى ويقول :

حيَّاك الله يا وَجه الأحْباب . إن أصْبهانَ بلادى ، ولى فيها أبٌ وأمٌّ ، غزانا قومٌ أقوياء ، فأخذونى أسيراً فى جملة من أخذوا من الأسرى وباعونى خادماً كما ترى .

فعانقه أنس الوجود ، وبادله قُبلة بقبلة ، مجاوباً له فى إبداء عَواطفِهِ . وبعد أن أطفأ ما بهما من حَنين ، دعاهُ الخادمُ إلى الدخول إلى ساحة القصر .

دَخل أنسُ الوجود القصر مع الخادم ، فرأى فى السَّاحة أشجاراً باسقة ، ظلُّها ممْدود ، وثمرُها مَنْضُود ؛ تتفرع منها جداول تجرى وتَتشعب ، ورأى فى أغصان الأشجار أقفاصاً تتدلى ، بعضها مفضض ، وبعضها مذهب ، لها بريق يخطف الأبْصار .

فاقترب من هذه الأقفاص يتأملها ، فوجد فى داخلها طيوراً ؛ فوقف أمام قفص منها ، وكان فيه عَندليبٌ ؛ فلما رآه العندليبُ ينظر إليه نظرة حزينة فيها إشفاقٌ ممزوجٌ بالعطف والحنان — ناح نواح الغريب ، لذكرى الوطن أو ذكرى الحبيب .

ففاضَتْ الدموع من عينى أنس الوجود ، مجاوبا العندليبَ فى نواحه قائلا له :

لا تحزن فنحن سيان . لا تظن أنك أسيرٌ لأنك محبوس فى قفص ، وأَنى طليق أغدو وأروح كما أشاء ، وعَلَى ما أَشتهى ؛ فليس الأسرُ أن تحدَّد إقامتك فى مكان ، وليست الحرية أنك تغدو وتروح حُرًّا طليقاً من كل قيد ؛ وإنما الحرية والعبودية أمران مَعْنويان ، يفرق أن يشعر الإنسان بالسعادة فى نفسه ، أو أن يشعر بالشقاوة والحرمان .

وما زال يتنقل بين الأقْفاص ، وينظر إلى ما فيها من الطيور ، ويُناجيها ، ويبثها أحزانه وأشجانه ، وينشدُها أهازيجه وأشعاره ، والخادم ينظر إليه فى استعجاب واستغراب ، حتى تأثر بكلامه ، فمصفت

به نوبة من الحـزن كادت تخرجه من صوابه ، لولا أن أنس الوجود اتجه إليه ، وسأله :

لماذا تضعون هذه الطيور فى الأقفاص ، وتعلّقونها على هذه الصورة الغريبة ؟!

فأجاب الخادم :

إن سيِّدتى أمرتنا أن نصطاد لها هذه الطيور ، وأن نضعها هكذا فى الأقفاص ، لتأنس بها ، وهى فى كلِّ غروب تنزلُ إليهـا فتناجيها ، وتتحدثُ إليها؛ وبلغ من إعزازها لهذه الطيور ، لأنها سلْوَتُها، أنها أمرتنا أن نصنع لها أقفاصاً من فضة وذهب .

فقال أنس الوجود ، وقد خفق قلبه خفقةً شديدة لا يعرف لها سِرًّا :

ولمن هذا القصرُ المنعزلُ المنيع ؟ !

أجاب :

هو للوزير إبراهيم ، وزير الملك شماخ ، بناه لابنته خوفا عليها من عوارض الزّمان ، وطوارق الحدثان ؛ ثم حملها إليه ، وأقامها فيه، ولاتجلب إليها المؤن إلا مرّة فى كلِّ عام .

فقال أنس الوجود للخادم، وهو يُحاول أن يُخفى عنه فرحه واضْطرابه :

حقا إن هذا الأمر يدعو إلى العجب ، ولـكن ألا تدعنى يا صاحبى هُنا فى ضيافتك ، حتى ييسِّرَ اللهُ لى أمرا ، وإذا سألك سائلٌ عنى ، فقل إنه رجلٌ من أولياء الله ، ساقه الله إلينا .

فقال الخادم : انزل فى ضيافتى ياسَيدى على الرَّحب والسَّعة .

وانْتحى أنس الوجود ناحيـــة ، وجلس فى أحد أركانها ، ملتفًّا بأثماله ، ينتظر ميعادَ نزول الورد فى الأكمام ، لمناجاة طيورها .

وكان إذا لمحه أحدٌ من خدمْ الدَّار وسأل عنه : من يكون ؟

يجيب الخادم : إنه وَلى مِنْ أَولياء الله الصالحين . دَعــوه لشأنه يتعبد ، ويتهجد .

(٥)

ولكن هذه الحيلة لم يجن أنس الوجود لها ثمرة ، فإن الورد فى الأكمام كانت قد نفد صبرها ، وضاق ذرعها ، وأصبحت لا تُطيق صبراً على المقام فى هذا المكان الموحش ، وحيدةً طريدة .

ففكرت فى حيلة تتخلص بهـا من ذلك السجن الموحش ، وتخرج لتجد لها أنيسا تُناجيه ويُناجيها خيرًا من هـذه الطيور المحبوسة فى الأقفاص .

فجاءت ببعض الملابس القديمة ، ومزقتها ، وجدلتْ منها حَبْلاً طويلا متيناً ، وقضت ليالى فى جَدْل هذا الحَبْلِ ، ثم دَلتَّه من نافذة خلف القصر ؛ بحيث لا تقع عليها عين طيرٍ ولا خادم ، وتعلقتْ بذلك الحبل ، وهبطت إلى الأرض خارج القصر ، لعلها تجد من ذلك الفضاء الواسع مخرجا مما هى فيه من ضيق ووحشة ، فإن السعادة ليستْ فى سِعة الدُّور ،



وارتفاع القصور ، وكثرة الخدم والحشم ، والحدائق الغناء ، والرِّياض النَّضرة ، والأزهار المتفتحة ، والمياه الجارية ، والطيور المغردة ، ولكنها شيء وراء هذا كلِّه ، وتتحقق للإنسان في وجود هذا وفي غير وُجُوده ، فهي ليْسَت إلا في أن يرى الإنسان نفسه سعيدًا ، ويقدر لها أنها سعيدةٌ ، ولذلك تختلف أسباب السعادة باختلاف الناس .

فالبخيلُ يرى السعادة في جمع المال ، والمسْرِف يرى السعادة في إنفاق المال ، والعالم يرى السَّعادة في تحصيل العلم ، وتأليف الكتُب ، والزَّاهد يَرَى السعادة في الاخْشيشان والتقشف ، والمحْرومُ يَرَى السَّعادة في أن يُعْطى ، والوحيدُ يرى السعادة في وجود الأنيس ، والسجينُ يَرَى السعادة في الانطلاق ؛ وهكذا كلُّ إنسان ، وما يُسِّرَ له .

لذلك رأت الوردُ في الأكمام أن ما يُحيط بها من جمال القصر وأُبَّهته ، وتوفير أسباب الراحة لها من خدم وحَشم وطعام وشراب — لا سعادة لها فيهِ ؛ وإنما سعادتها فيما تطلبُ لنفسها ، وتتمناه لها ، ففكرَت في الخلاص من رِبْقة الأسْر ، ووَحشة السجن ، الذي ألْقاها فيه وحشية الأُبوَّة ، وضراوة الحنَان ، وتمردُّ العطفِ ، وجُنون الغَيْرة .

لذلك عَوَّلت على أن تتدلى من جوار القصر إلى الجزيرة ما دامت لا تستطيع الفِكاك عن طَريق الباب ، وبعد أن تُصبح حرةً طليقة تتدبر في طريقة تعودُ بها إلى مدينتها ، وتلجأُ إلى الملك شماخ ترجو شفاعَته لدى أبيها ، مظهرة براءتها ، ونصاعَة صفحتها .

ومن ثمة نفَّذت هذه الفكرة دونَ توان أو إبطاء .

وما إن استقرت قدمَاها على أرضِ الجزيرة خارج جدران القصر حتى أخذت تَعْدو مسرعة رغم وعورة الطريق ، خشية أن يفطن لغيابها حُرَّاسها من خدم القصر ، ويعملون على إعادتها ثانيًا .

ولم يمض إلا قليلٌ من الوقت ، حتى كانت تعتلى إحدى الصخور المشرفة على البحر ترقبُ منها ما يحيط بالجزيرة لعلها تجدُ أحدًا يرشدها إلى الطَّريق الذى تَسْلكُه ، أو قاربًا ينتشلها مما هى فيه .

ولحسن حظها ساق الله إليها صيادًا يصطادُ بقاربه فى البحر ، ويجول به قُربَ الجزيرة ، على الرغم مما كان شائعًا بين الصيادِين عن هذه الجزيرة ، من أنها تسكنها جنيةٌ وأولادها الصِّغار ، وأن هؤلاء الأولادَ يبكون وينُوحون بصوتٍ مؤثِّر ، يجعلُ كلَّ من يسمعُ عويلهم المؤلم يقول : إنه عويلُ من ثكلَتْ أولادَها . لذلك عُرفت الجزيرةُ وربوتُها باسم جَبَل الثكلى ، وتجنَّبَ المسافرون والصَّيادون الاقتراب منها .

لذلك ما كاد الصيادُ يرى الوردَ فى الأكمام قائمةً فوق الصخرة وهى تشير إليه بالاقتراب منها ، حتى تَوَلَّاه الرُّعب ، وغلَبَ عليه فزعٌ شديدٌ ، وأسرع يحولُ دفة قاربه مبتعدًا به عن الجزيرة ، حتى لا يقع فريسة لتلك الجنِّية .

ولكن الورد فى الأكمام — وقد كانتْ هذه هى فُرصتُها الوحيدةُ

للفكاك ، قبل أن يلحقَ بها أحَدٌ — أخذت تُنادى الصيادَ ، وتشيرُ إليه ألا يَبْتَعد ، وقد عَرَفَتْ أنه خَائِفٌ منها لوجودها فى هذه الجزيرة المهجورة ظنًّا منهُ أنها ليستْ بشرًا .

ورآها الصَّيادُ وهى تشيرُ إليه بألا يبْتعد ، وسَمِعَها وهى تُنادى فتَمهَّل ، ولكنه ظلَّ يتوجَّسُ خِيفةً منها ، وتطلع نحوها يتأمَّلها ، فوجدها فتاة بارعة الجمال ، باهِرة الحسنِ ، بهية الطلعةِ ترْتدى ثيابًا حريرية فاخرةً ، وتتحلّى بالجواهر اللاَّمعة ، واليواقيت الثمينة ، فحار فى أمْرِه ، واقترب بقاربه من شَاطئ الجزيرة وصاح بها :

من أنتِ ؟ !

أَجَابَتْ :

أنا فتاةٌ بائسة ، سُجِنت ها هُنا ، فنجِّنى نجّاكَ الله ، ولا تخفْ .

فتقدّم الصيادُ نحوها ، وسألها :

إنْسِيَّةٌ أنتِ أم جِنية ؟ !

أجابَت :

إنسيةٌ واللهِ !! قذَف بى الحظُّ التَّعِسُ إلى هذه الجزيرة ، فخلِّصْنى يخلِّصك اللهُ ، وفرِّجْ كَرْبى ، يُفَرِّج اللهُ كربَك ، وأغثنى يُغثكَ الله .

اطمأن قلبُ الرجلِ بعضَ الاطمئنانِ ، وسألها :

ومن أتى بكِ إلى هذهِ الجزيرة المهجورةِ ، وإلى أينَ تُريدينَ أن تذْهَبِي ؟ !

أجابَت :

جاءَ بى نفرٌ من أَهْلِى ليبعدُونى عن المدينة التى فيها منْ أحب . وأريدُ أن أعُودَ لأتقدَّم بظُلامَتى إلى السُّلطان .

ثم بكَتْ ، وتوسَّلَت إليهِ أن يأخذَها معه . فرقَّ لها قلبُ الصَّياد وغلَب على ظنِّه أنها من الإنس لا من الجنِّ ، ووطّن عَزمَه على أن يَحْمِلَها معهُ فى قاربِهِ ، وينقُلَها من هذِهِ الجزيرة .

فقال لها : لا تبكى ، انزلى إلى المركب ، وسأذهبُ بكِ إلى حيث تريدين .

فنزلتِ الوردُ فى الأكمامِ إلى المركب ، وما استقرّت به حتى حوّل الصيادُ دفته ، وأسرع يبتعد عن الجزيرة .

وسار بهما المركبُ شوطًا بعيداً ، والوردُ فى الأكمام قريرةُ العين ، مسرورةٌ بخلاَصها تحمَدُ اللهَ على نجاتِها ، ولكنَّ سُرورَها وفرحَها هذين لم يطولا ، فقد هبّت على المركب ريح عنيفةٌ أفلتت زمامه من يد قائده وجعلته لا سلطان له على تسييره .

وظلّت هذه الريح تدفعُ القاربَ وتسيِّرهُ حيثُما شاءت مدة ثلاثة أيام والوردُ فى الأكمام قابعةٌ به ، ترتعد خوفاً وفرَقًا. ثم هدَأَت الريحُ وسكَنت ، فتولّى الصيادُ قِياد القاربَ واتجه بهِ نحو مدينةٍ لاحت له من بعيد .

وكانت هذه المدينةُ يحكمها ملك عظيمٌ اسمه الملك دِرْباس ، وكان فى هذا الوقت يُشرف هو وابنهُ من نافذة قصره المطلّ على البحر ، فرأَيا

الصيَّادَ وهو يقتربُ من مَرْسَى القصرِ ، ويُرسى فيه قارَبه . فقال الملكُ لابنه :

هيَّا بِنا نتريَّض بساحِلِ البحر ، ونرَى : ما شأنُ هـذا الصيادِ الغريبِ ؟!

فنزلا من باب القَيْطُون ، واتجها إلى حيثُ رسا القارب ، وكان الصَّيادُ وقتئذٍ مشغولا بتثبيتِ القارب بالمِرساة ، وهو لا يَعلَمُ أن هَذهِ المرساةُ إنّما خُصِّصت لقوارب مِلكِ المدينة ، وأن هذا القصرَ المشرف عليه قصرُه

واقتربَ الملكُ من القارَب فرأى الوردَ فى الأكمامِ قائمةً فيه وكأنَّها البدرُ ليلة تمامِه ، وهى ترتدى ملابس نخمةً قيمةً ، فحارَ فى أمْرِها ، وأمْرِ هذا الصَّيادِ الذى تبدُو عليه علاماتُ الفقْرِ .

وكأنما أَحسَّت الوردُ فى الأكمام بالنظرات المصوَّبة نحوها ، ففتحت عينيها فأبصرتْ شخصاً قائماً إزاءها ، تبدو عليه الهيبة والأُبَّهة والوَقارُ ينظرُ إليها . فتلفتتْ حوْلَها ، فرأت المركبَ راسِياً أمام بناءٍ عظيم شامخ ، ولم تقعْ عينُها على الصياد الذى كان لا يزالُ مشغولاً بتثبيت مركبه ، فارتجفتْ ، وفاضتْ الدُّموعُ من عَينَيها ، ونَهضت قائمة .

فقال لها الملِكُ :

يا بنية ؛ مَن أنتِ ؟ ! وما السببُ فى مجيئك إلى هنا ؟ !

فأجابت :

أنا ابنةُ إبراهيمَ وزيرِ الملكِ شمّاخ ، أما مجيئى هُنا فأمرُه عجيبٌ وشأنُهُ غريب .

وأقبلَ الصَّيادُ ، فنظرت إليه الوردُ فى الأكمام ، كأنما تستفهمه : إلى أين ساقَها ؟!

فبادرَ الملكُ الصيادَ بقوله : من أينَ جئت ؟ ! وما شأنُ هذه الفتاةِ ؟!

فأجابَ الصَّيادُ ، وقد أدرك أن مُحدِّثهُ لا بُدَّ أن يكون شخصيةً ذات مكانةٍ بهذه المدينة :

يا سيِّدى إننى صيَّادٌ ، أجوبُ البحر فى طلب الرزقِ ، فساقتنى الصُّدفُ إلى جزيرةٍ مهجورةٍ لا يقربُها أحد ، فعثرتُ على هذه الفتاةِ سجينةً بها ، وتوسَّلتْ إلىَّ أن أُخلِّصها مما هى فيه ، وأصحبها معى لعلَّها تستطيع العودةَ إلى بلادها ؛ فهبَّت علينا ريحٌ عاصفةٌ جعلتنا نضلُّ الطريقَ ونصلُ إلى هذه المدينةِ التى لا نعرفُ لمن تكونُ ؟!

فقالَ الملكُ : لا بأسَ عليكما ! فأنا ملك هذه المدينة ، ولن ينالكما إلا الخيرُ . ولكن : حدِّثينى يا فتاةُ عن سَبَبِ سجنِك هذا حتى نعمل على إنصافِك .

حينئذٍ قصَّتْ الورد فى الأكمام على مَسامع الملكِ قصتها ، من بدايتها إلى نهايتِها ، والملك مُصغٍ إليها وقد شدَهَهُ العجبُ . فلما فرغتْ منها أحسّت أنَّها قَدْ ألقت عن كاهلها حِمْلاً ثقيلاً ، فتنفَّست الصعداء ، وشعرت أن بردَ الرَّاحةِ ، وهدوءَ الاطمئنان ، وحلاوةَ الإيناس ،

تعشت فى جسمها ، ولا سيما أنها أيقنت أن الملكَ قدْ عَطَفَ عليها وأنه سَيَسْعى إلى الأخذِ بناصِرها .

وكان ما شَعَرت بِهِ الورد فى الأكمام هو عينُ الحقيقةِ ، فإن الملِكَ كان قدْ تأثَرَ حَقًّا من قصّتِها وعَوّلَ على مُساعدَتِها . فقال لها :

يا بُنيّة لا تخشى شيئًا ، فسأُرْسِلُ أنا إلى الملكِ شامِخ أرجُو مساعَدَتَه فى هذا الأمر .

فجثت الوردُ فى الأكمام بين يَدَى الملك ، وقبّلت طرْف ردائهِ ، وهىَ تقُول :

جزاكَ الله عنِّى خيرًا يا مولاى .

فأنهضها الملك ، وقال لها : ادخُلى إلى القصر ، فسنعدُّ لك مكانا تُقيمين فيه حتى يحقق الله لك ما تبتَغين .

ودخَلت الورد فى الأكمام إلى القصر ، وهى تشكر الله الذى قيَّض لها هذا الملكَ الكريم .

وكان هذا هو حال الصياد أيضاً إذ انصرف من لدَى هذا الملك راضياً مُغْتبطاً بعدَ أَنْ نَالَ نفحة طيِّبةً من المال لم يكن يأمل فى نوالها ، أو يخطر له هذا الخاطر يوماً على بَال .

أما الملك فقد دخـل من فَوره إلى مجلسه ، واستدعى وزيرَه ، وقال له :

إنى أُريد أن أرسلَك إلى الملك شامخ برسالة ، وتعود لى فوراً بجوابها.

فقال الوزير : سمعاً وطاعةً ! وما هو مضمونها ؟ !

قال الملك : إننى أطلبُ مصاهرته ، وذلك بأن أُزوج ابنتى من شخص من أصفيائه اسمه أنسُ الوجود . والجوابُ هو أن تأتى بأنس الوجود معك .

ثم أردف وهو يشير له بأصبعه محذراً :

وإياكَ أن تحضر بدونه ، ابذل فى سبيل ذلك كلَّ جهدك ، واعملْ كل حيلتك ، وإلا كان نصيبك عندى ما لا تحب ، وتنال منى ما تكره .

ثم أعطاه رسالةً مكتوبة ليسلمها للملك شامخ ، وأمره بإعداد هدية ، قيمة من جواهر ولآلئ يأخذها معهُ .

ووصل وزيرُ الملك درباسُ إلى قصر الملك شامخ يحمل الرسالة والهدية ، فقوبل من الملك بحفاوةٍ وترحيب .

ولما اطلع على رسالة الملك دِرْباس التى بعثها إليه ، لم يملك أن انحدرت على وَجهه دمعتان ، وتمتم كأنما هو يناجى نفسه

أين أنت يا أنس الوجود ؟ ! وما هو يا ترى سِرُّ غيابك ؟ !

ثم قال للوزير :

إن من دواعى سرورنا واغتباطنا أن نجيب أىَّ مطلبٍ يطلبه الملك دِرْباس منا ، ولكن ، كم يحزُّ فى نفسى ألا أستطيعُ إجابته إلى هذا المطلب على رغمى .

فأنس الوجود غائبٌ ولا نعرف سرَّ غيابه ، مختفٍ ولا نعلم علَّة اخْتفائه . أمرت بالبحث عنه ، ولكن لم يأتنى ما يُشفى الغليل .

فوجم الوزير ، وتكدَّرتْ نفسه ، وعبس وجههُ ، وقال للملك :

وما العمل يا مولاى ؟ فإنى لا أستطيع أن أضع قدمى فى بلادى إلا وأنس الوجود معى .

فقال الملك :

سأكتب للملك درباس بحقيقة الأمر ، وجَلية الخبر ، فإن الأمر ليس فى يدنا ولا فى يدك ، فلا لوم ولا تثريب عليك .

فقال الوزير وهو يهز رأسه غير مقتنع :

نعم ، إنه لا حيلة لنا فيما كان ، ولكنى الآن لابد أن أَحتال حتى أعثر عليه ، فَمُدَّنى يا مولاى بما يرشدنى عن أوصافه ، ويُعيننى على البحث عنه ، وإنك إن فعلت ذلك أسديت إلىّ يدًا كريمةً ، وقدَّمتَ لى جميلا لن أنساهُ .

فقال الملك :

وهل تظننى أُقصر فى البحث عن أنس الوجود ، أو أُمسِك يدى عن إعانة من يُريدُ البحث عنه ، دونَك وزيرى إبراهيم ، اصحبه معك للبحث عنه ، فهو يَعْرفه حقَّ المعرفة ، واصطحِبا معكما من يُعينُكما على هذا الشأن من رجال ، وما تَحتاجان إليه من زادٍ ومَال .

وأمر الملك وزيره باصطحاب وزير الملك درباس ، والخروج للبحث عن أنس الوجود .

فخرج الوزيران ومعهما جماعةٌ من الأتباع ، فجابوا البلادَ من أقصاها لأدناها يبحثون وينقبون ، يسألون ويستفهمون ، دون جدوى ، فما عثروا لأنس الوجود على أثر ، ولا دَلهم أحدٌ على خبر .

والوزيران على رغْم ما نالهما من التعب والنَّصب والمشَقّة لم يَكلاَّ ولم ييئسا .

فالأولُ يعرف أنه لَنْ تكون له حياةٌ طيبة يرتجيها فى وطنِهِ وبين أَهله دون أن يَعْثرُ على أنس الوجود ويعود به إلى مليكه .

والثانى يعرف أن معنى العثور على أنس الوجود و إرساله إلى الملك ، درباس ، راحةٌ لنفسه ، وأمانٌ لابنته .

لذا كان مَسْعَاهما جدِّيا ، وبحثهما شاملاً ، تحفزهما رغبة أكيدة ، وتدفعهما عواملُ نفسية .

ولمَّا طال بهم جميعاً كثرةُ الطَّواف ، أشار نفرٌ من الأتباع على الوزيرين بالذهاب إلى جبل الثكلى .

فعبس الوزير إبراهيم لهذا الرأى ، وعارض فيه خوفاً من معرفة سر ابنته الورد فى الأكمام ، ولكنه فجأة خطر بباله خاطر :

أيكون أنس الوجود حقًّا بجبل الثكلى ؟ !

أيكون قد عرف مقر ابنته وتبعها ؟ !

أيكون هذا سرُّ اختفائه ؟ !

يا للهَول ! ! وطاش صوابُ الوزير ، وأمر فى الحال بشد الرِّحال إلى جبل الثكلى .

وأعدُّوا مركباً لهذا الغرض أقلَّهم جميعاً إلى الجزيرة .

وما إن وَصلوا حتى تقدم الوزير والد الورد فى الأكمام إلى القصر ، وطرق بابه ، ففتحه أحدُ الخدم ، فلما عرفَ فى الطَّارق سَيِّدَه فرح ورحَّب به ، ودخلوا جميعاً إلى ساحة القصر ، وسأل الوزيرُ الخادمَ فى سِرٍّ من أصحابه :

كيف حالُ سَيِّدَتِك ؟

فوَجَم الخادم ولم يُحرْ جواباً .

فانقبَض قلب الوزير ، ودخل القصرَ ، وسأل الجوارى عن ابنته ، فقلنَ له : إنها اختفت ، ولم يُجْدِ البحثُ عنها نفعاً ، وأرينْهُ سُيور الأقمشة التى فرَّت بها ، وهى لا تزالُ مربوطةً فى مكانها من جدار القصر الخلْفى .

فكاد الرجُل أن يُصعق ، وتنفطر مَرَارتُه من شِدَّة القهر والغَضبِ وغَشِيه حُزنٌ قاتلٌ ، ونزل من أعْلى القصر وهو يُتمْتمُ قائلا :

لا حيلةَ فى قضاء الله ، ولا مفرَّ مما قدَّره وقضاه ، ولا ينفعُ الحذَر فيما خطَّه القدر .

وفاضت به شُجونه ، فلم يتمالك غير التصفيق بيديه ، وضربِ كفٍّ بِكَفٍّ تارَةً ، وعَضّ الأصابع ، والجزّ على الأنياب تارة أخرى .

فسأله وزيرُ الملك درباس : مابهِ ؟! وما غيرّ حاله وقلب كيانه ؟!

فقصّ عليه طرفاً من قِصة بنته الورد فى الأكمام .

فالتفّ حوله وزيرُ الملك درباس والأتباع والخدمُ يواسُونهُ فى محنته ، ويُخفِّفون عنه مُصيبته .

ولما سَكنَ غضبُ الوزير بعضَ الشيء سأل الخدم :

ألم يأتِ إلى هنا أحد ، أو ينزل بالجزيرة إنسانٌ ؟

قالوا :

لم يأتِ إلى هنا إلاّ هذا الرجُلُ المجذوبُ ، قذَفه البحرُ بعد أن أغْرق المركَبَ الذى كانَ مُسافراً عليهِ ، وموطِنهُ أصبهان .

وأشارُوا إلى أنس الوُجُود ، وكان قابعاً بجوارِ جِدار البستان ، مُشعَّث الشَّعر مُغْبَرَّ الوجْه ، ذاهِلاً عما يَدور حوْله .

فميزَته عينُ الوزير ، ولكنه لم يفطِن إلى أنه أنس الوجود لتغيُّر حالِه .

وأمَرَ الخدم والأتباع بالخرُوج إلى الجزيرة ، ومُعاودة البحث عن الورد فى الأكمام ، فامتثلوا أمرَه ، ولكن ذهبت الجهودُ هباءً .

فجُن جُنونُ الوزير ، وثارتْ ثائرتُهُ ، وخرجَ ينقِّبُ عن ابْنتِه فى أرْض الجزيرة ، ويبحثُ فيها شِبرًا شِبرًا ، وهو يندُبُها ويبْكيها ، عَائداً باللَّومِ على نفسِه ، لتَعسُّفه معها ، وظُلمِه إيَّاها .

ولما رأى وزير الملك درباس اشتغال رفيقه بالبحث عن ابنته ، وأنه لا جدوى من بقائه ، ولا أمل له فى العثور على أنس الوجود — استأذن

من الوزير إبراهيمَ فى العودة إلى بلاده ، ثم قال يومِئ إلى أنس الوجود :

وأريد أن أصحبَ هذا الفقيرَ المسكين معى ، فأوصله إلى بلاده أصبهان حيث هى قريبة من بلادنا ، عسى الله أن يحل بنا من بركته ، فيعطف علىّ قلبُ الملك ، ولا ينالنى غضبه .

فقال الوزيرُ إبراهيم : نِعْمَ ما تفعل ، ولك المثوبة على ذلك عند الله .

كان وزيرُ الملك درباسَ يلحظ حالة أنس الوجود فيرقُّ له ، ولحظ أن هذا الولىَّ المجذوب المذهول ، جَذْبَتُه غشية ، وذهوله حرمانٌ من شىء لا يعرفه أحد ، وأنه مريض بائس لا حول له ولا قوة ، لا يجدُ من يعنى بخدمته ، ولا يأبه لحاله ؛ فأراد أن يصحبه ليوصله إلى أهله وبلاده .

وكان ما لحظه الوزير على أنس الوجود من العوارض حقيقةً لا افتعالا ، فلم يكن انزواؤه عن رغبة ، ولا ذهوله عن تصنُّع وقصد .

كان قد أصابه ما أصابه عقب علمه بفقدان الورد فى الأكمام ، وبعدم العثور عليها ، صدمته الصدمة فأذهلته ، وغشية الغشية فتركتْه لا يفقه أمرًا ، ولا يعى شيئًا ، وكان كلما مرَّ عليه أحد ممن فى القصرِ ، يظن أنه مستغرق فى عباداته ، هائم فى ابتهالاته ، فينصرفُ عنه ولا يزعجه ، ولا سيما أن الجميع كانوا مشغولين بسيِّدتهم .

فلما أعد وزير الملك درباس نفسه للسفر ، وذهب أتباعه لاستدعاء أنس الوجود لمرافقتهم وجدوه فى غشية فحملوهُ إلى المركب ، ثم إلى ظهورِ البغال وهو على ما هو عليه لا يحس ولا يعى .

فوكل الوزيرُ به واحدًا من خدمه ، يلاحظه ويعنى به أثناء الطريق حتى يفيق وبعد ثلاثة أيام من السير جاء الخادم إلى الوزير وقالَ له :

لقد أفاق ، ياسيدى ، الرجلُ المريضُ .

فقال الوزيرُ :

اسقُوه ماءَ السكر ، وأنعشوه بماء الورد .

وانتبه أنسُ الوجود بعض طول غشية ، وأفاق بعد طول سُبات ، فتح عينيه وتلفَّت حوله ، فوجد نفسه فوق محفَّة يحملُها بغل ، وتظلها مظلة تقيه وهَج الشمس . فسأل فى صوت خافتٍ متهدِّج :

أينَ أنا ؟ !

فقيل له :

فى صحبة وزير الملك درباس .

فقال :

ولماذا ؟ !

قالوا :

ليوصِّلك إلى بلادك أصْبهان .

قال :

لاحولَ ولا قُوة إلا بالله ! !

ثم تذكَّر ما مرَّ به ، ومَا كان فيه ، وما لاقاهُ وقاساهُ ؛ فقال :

احملونى إلى الوزير الكريم ، الطيب القلب ، الكريم النفس .

فقالوا :

سنذهبُ بك إليه عندما نحطُّ الرِّحال .

وكان الركبُ قد أشرَف على حدودِ مدينة الملك دِرباس ، وطارت الأنباء إلى المدينة تُنبئه بقرب وُصول الوزير ؛ فأوفد رسولا لملاقاته ، وزوَّده بكتاب يقول فيه :

إذا كنت قد أتيتَ بأنس الوجود فخفَّ لمقابلتى ، وإن لم تكن فعد من حيثُ أتيت ، فإنى صممتُ ألا ألقاك إلاَّ به ، فاختر لنفسك .

فلما قرأ الوزيرُ رقعة الملك شقَّ عليه الأمر ، وضاق به الحالُ ، وتحير فيما يفعل ، وإلى أين يتجه ؟ ! !

فأمر بالكفِّ عن المسير ، حتى يتدبر الأمر ، ولعلَّ الله يَهديه إلى رأى يرضى به الملك ، ويكسب به عطفه .

فنزلَ الرِّفاق ، وأقاموا مخيمين : أحدهما لسيدهم ، والآخر لهم .

وفيما الوزير جالسٌ فى خيمته ، وقد ضاقت به الدنيا ، وانسدت فى وَجههِ السُّبل ، يُفكر فى هذا الأمر الذى لا حيلة له فيه ، وفى مُعاقبة الملك له فى ذنب لم يجنه — دخَل عليه أنسُ الوجود ناحلا ذابلا ، ضامر الجسم يجر قدميه جرًّا ، وكأنما يقتلعهما من الأرض اقتلاعا .

ولم يكن الوزير فى حالة نفسية تسمح بمقابلته أنس الوجود ، ولا بسؤاله عن حاله ، فأراد إقصاءه عنه وصرفه ، ولكنه عاد فتمهل ، ودعاهُ إلى الجلوس ، لما رأى على وجهه من خطوط الألم ، وتباريح العذاب .

وسأله عن حاله وعما يُعْوِزُهُ .

فقال أنس الوجود :

إننى لا يعوزنى شئ يا سيدى . فقد غمرتنى بفضلك ، وحبوتنى بعطفك ، ولكن لماذا اصْطَحَبتنى معك ؟ ! وإلى أين تذهب بى ؟ !

فقال الوزير :

اصطحَبْتك لما رأيتُ من مَرَضك وضعفك ، فأردتُ أن أعود بك إلى بلادك حيث هى قريبة من بلادى .

فقال أنسُ الوجود :

وأيْن هىَ بلادُكم يا سيِّدى ؟

فقال الوزيرُ ، وقد طَفَرتْ من عينيه الدموعُ فلم يقوَ على حَبسها :

إننا على حدُودها ، ولكنَّنى لا أملِكُ أن أدْخلها .

فتعجب أنسُ الوجود لِقولِ الوزيرِ وسألهُ :

ولماذا ؟ !

قال : لأنَّ الملك ناطَ بى قضاءَ حاجةٍ ، فلم تُقضَ ، وهو يُحرِّم علىَّ دخُولَ المدينةِ إن لم أقْضِها ، وقد بذلت فى سبيلِ ذلك جهدِى ، وما وسِعتْ حيلَتى ، فلم أظفرْ بها .

فقال أنسُ الوجود :

وما هِى ياسيِّدى حاجةُ الملك ؟ !

نظرَ إليه الوزيرُ تبدوُه عينه ، ويقتحِمُه نَظَرُه ، وكأنه تُحدثه نفسه :

ما لِهذا البائس المسكين وما طلبَ مِنى الملك ؟ ! ولكنْ : يضع الله سرَّه فى أضعف خلقه ، فلعلى أجدُ عنده مخرجاً !

فقالَ له : سأخبرُك خبرى ، وأقصُّ عليك قصَّتى ، عَلَّنى أجدُ عندكَ ما يُزيل غَمِّى ، ويفرِّجُ كرْبى .

وأخبر وزيرُ الملكِ أنسَ الوجود بخبرِه ! وقصَّ عليه قصَّته ! وأعلمه ألاَّ حياةَ له إلا بعد عُثورِه على أنس الوجود ، ولا عودَة له إلى وطنه إلا باستصحابه .

فقال أنسُ الوجود :

لا تخْش شيئاً ، خُذنى معك إلى الملك ، وأنا أضْمَنُ لَك مجىء أنس الوجود .

فنظر إليه الوزيرُ نظرةَ المتشكِّكِ ، وقال :

ومن أينَ تأتى به ، وقد بحثتُ عنه أنا وأعوانى فى كلِّ مكانٍ ، حتى فى جَبَل الثَّكْلى ، فلم نقفْ لهُ على أثر ؟

قال : سترى إن شاء الله .

ولكن الوزير لم يقتنع ، وقال :

أحقٌّ ما تقول ؟ !

قال :

نعمْ ، وأُقْسِمُ لَك يا سَيِّدى إنَّه حق .

فتهلَّل وجه الوزير ، ونهض فأصدر أمره لِرجاله لِلتأهُّب للمَسير والدخول إلى المدينة .

ثم قال لأنس الوجود : هيَّا بنا ، وإيَّاكَ وأن تُسوِّد وجوهَنا .

وصل الوزير وأنسُ الوجود إلى المدينة ، واستأذن الوزيرُ على الملك ، فلما مثَل بين يديه ، قال الملك لوزيره :

أين أنس الوجود ؟

فقال أنس الوجود :

يامولاى ؛ أنا أعرف أين أنس الوجودِ ! وأنا كفيل بإحضاره إليكم متى عرفتُ السببَ فى طلبه .

حينئذٍ أمر الملك بإخلاء القاعة ، وانفرد بأنسِ الوجود ، وقرَّبه منه ، وأخبره خبر الورد فى الأكمام .

وانتهى الملك من حديثه ، فانتهت معه آلام أنس الوجود ومتاعبه ، وزالت عنه أحزانه وأتراحه ، وعمر قلبه بالابتهاج والفرح ، وفاض وجهه بالسرور والبشر ، وانبعثَ فى نفسه الحياةُ والأمل .

وقال للملك :

ائتنى بثياب فاخرة وأنا آتيك بأنس الوجود .

فأمر الملك لأنس الوجود بحلَّة كاملة من أفخر الدِّيباج .

فأخذها أنس الوجود وانتحى ناحيةً ، ثم ارتداها ، وخرج إلى الملك أنيق البزَّة بهىَّ الرَّونق لولا ما يشوبه من نحولٍ وذبول . وقال له :

هأنذا ياسيدى الملك ! ! أنا طَلِبتك ، أنا الذى طوّف وزيرك عليه ما طوّف ليعثر عليه فلم يجده ، أنا أنسُ الوجود .

ونظر إليه الملك فى دهشة سرعانَ ما تحولت سرورًا وإعجابًا ، وقال :

أنت أَنسُ الوجود ؟ ! أحقا تقولُ ؟ !

أجاب :

نعم يا مولاى ، فما أقول غير الحقِّ .

فأراد الملك أن يستوثق من ذلك ، فسأله عن خبره وحاله ، فقص عليه قصته وذكر له خروجه للبحث عن الورد فى الأكمام ، وما جرى له ؛ فتأكد الملك أنه هو ، وقال له :

إنك لأهل للورد فى الأكمام ، وإن الورد فى الأكمام لأهل لك .

فقال أنس الوجود :

وأين هى الورد فى الأكمام يامولاى ؟ ! ومن لى بها وقد ضنيت من أجلها ؟ !

قال الملك :

هى هنا فى قصرى ، وسأرسل الآن فى طلب القاضى والشهود ليعقد لك عليها فى الحال .

وأمر الملك . فحضر القاضى والشهود ، وكبار رجال الدولة ، وعقد لأنس الوجود على الورد فى الأكمام ! !

وأرسل الملك رسولا إلى الملك شامخ يخبره بما تمَّ على يديه .

وما كاد الملك شامخ يلم بمضمون رسالة الملك درباس ، حتى شمله فرح وسرورٌ .

كان فرحًا شاملاً ، وسرورًا مزدوجاً ، أن يتلقى نبأ العثور على عزيزين أثيرين عنده هما : أنس الوجود والورد فى الأكمام .

وأرسل من فوره إلى أبيها الذى كان فى حالة يرثى لها منذُ عودته من جبل الثكلى يزفُّ إليه النبأ .

أما ردُّه على رسول الملك درباس ، فكان هدايا قيمة ، وأحمالاً كثيرة ، أرسلها إليه إعلاناً لشكره له ، واعترافاً بفضله ، مصحوبة برسالة جاء فيها:

« يا أخى ! حيث إن العقد كان عندك ، أرجو أن يكون الفرح عندى » .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى يد الملك درباس ، قال : لا بأس فى ذلك .

وأمر من فوره فأعدتْ الهدايا للملك شامخ ردًّا على هداياهُ ، كما جهز لأنس الوجود والورد فى الأكمام من الطرائف واللطائف مايشتهيه كلُّ عروسين .

وسار ركبُ أنسِ الوجودِ والوردِ فى الأكمامِ من مدينةِ الملك درباس إلى مدينتهما تصحبه ثلة كبيرةٌ من الفرسان .

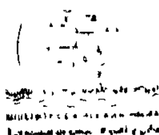
وكان يوم وصولهما إلى المدينة يوماً مشهوداً ، لم ير أهلها يوماً أعظمَ ولا أجمل منه ، فقد أقام الملك لذلك الاحتفالات والمهرجانات ، ونصبتْ السُّرادقات ، وأقيمتْ الخيام ، ورفعتْ الراياتُ ، ونشرتْ الأعلام ،

وأضيئت الأنوارُ ، ومدت الموائد ، ووُزِّعتْ الهباتُ والصَّدقات . وصدحت الموسيقا ، وتبارى فى الإجادة أهلُ الفنّ والغناء ، واستمرّتْ المدينةُ فى هذا الحلم المرِح الجميل بضعة أيام ، زفت فيها الوردُ فى الأكمام إلى أنس الوجود .

وقال الوزيرُ لابنتِهِ وزَوجها ، وهو يزورهما يوماً بقصرهما ، آسفاً : سامحانى يا وَلدَىَّ ، لقد كنتُ قاسِياً عليكما ، فحملتكما بقسوتى كثيراً من المتاعب والآلام .

فقالت له ابنته ، وهى تمسك بيده تربّت عليها ، وترنو إلى زوجها بنظرة حُبٍّ وإعجاب :

لا تَقُلْ ذلك يا أبَتِ ، لقد أنسَتْنا غمرةُ الأفراح كلَّ ما فات ، فما يكونُ فَرَحٌ إلاَّ بعد شِدَّةٍ ، ولا يُشعرُ براحة إلا بعد تعبٍ ، ولا تتمُّ سَعادةٌ إلا بعد شقاء .



رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٤٨
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3240 – 8

٩ / ٩٠ / ١٨٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

ألف ليلة وليلة

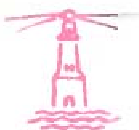
هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

قرش جنيه